الأعمال الكاملة



دار الشروق




خمس
خنافس
تحاكم
الشجرة

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أحمد إبراهيم الفقيه



مجموعة قصصية

دار الشروق



الإهـــداء

كلما اشتد مـن حولي عواء الذئاب البشريـة ، تذكرت أن هناك انســانا قريبـا مني ، يمكـن أن ألجأ إليه وأجد في نبلـه وصدقه وأصـالته مـايعيد التوازن إلى نفسي . .

فإليه

إلى شقيقي محمد إبراهيم الفقيه

أهدي هذا الكتاب

أحمد إبراهيم الفقيه



مقدمة

لزوم مـالا يـلزم

ولزوم مـالايلزم، هو أن يتحـدث الكاتب شـارحا عمله الإبـداعي، وكأن هذا الإبداع عاجز عن تقديم نفسه للقارئ. إنه بهذا الشرح يخطئ ثلاث مرات. مرة في حق نفسه، عندما يتقدم لأداء مهمة هو آخر الناس استعـدادا لها، لأن مهمتـه أن ينتج فنـا، اما تحليـل عناصر هـذا الفـن واكتشاف أبعاده ودلالاته ومنـاطق الضعف والقوة فيه، فهي مهمـة ناقد له أدواتـه التي تختلف عـن أدوات منشئ العمل الفنـي، ويستطيع بهذه الادوات ان يقترب من فهم واستيعاب أسرار المنتج الفنـي، التي غالبا ما تغيب عن المبدع نفسه. ومرة ثانية في حق نصه الإبداعي، الذي يجب أن يبقى متعدد الدلالات والمستويات، مفتوحا على كل الاحتمالات، مانحا نفسه لعدد من القراءات والتفسيرات، بحيث يستطيع القارئ أن يجد فيه شيئـا يتفق مـع رؤاه ومداركـه، حتـى وإن لم يتطابـق، بل مـن الخير ألا يتطابق، مع مايراه الكاتب نفسه. وهذا الشرح سوف يكون قفصا يحبس النـص في معنى مـن المعاني التـي ارادها الكـاتـب. ومرة ثـالثة في شـأن القارئ، الذي جاء يسدّ الأفق أمامه، ويصادر حقه في ان يتمثل العمل وفقا لما تقوده اليه معارفه وخبراته، ويفسـد بكلماته الشارحة متعة المغامرة

والاكتشاف لديـه ، ويكون في هذه الحالة كمن يقـف امام المسرح ، ينقل للمتفرج احداث المسرحية قبل ان يشاهدها .

لماذا اذن اتورط في كتابة هذه المقدمة التي لا تقول شيئاً سوى استنكار وهجاء هذه المقدمات .

السبب الـذي من أجله غـامرت بارتكـاب هذه الخطيئة ، هـو تبرير خطيئة أخرى ، أكثر حماقة ، ساقتني إليها الشخصيات القصصية في هذه المجموعـة ، التي أرادت ان تستخـدمني في التعبير عـن هموم سياسيـة ، ولعلها لا تعلم ان اقتحـام ميادين السياسـة ، مغامرة شديـدة الخطورة ، تشبه الدخول إلى حقل مليء بالالغام . وما سـأقوله هنا ، لن يكون شبيها بتلك المقـدمات التـي كثيرا مارأينـا كتّاب القصـة يستبقون بها المشـاكل ويحاولـون القفـز فـوقهـا ، عندمـا يبـادرون بتبليـغ القـراء ان الاحـداث والشخصيات في هـذه القصص إنما هي أحداث وشخصيـات وهمية وان اي تشابه بينها وبين اشخاص حقيقيين هو مـن قبيل الصدفة . لن اقول هـذا الكلام ، لأننـي ادرك ان القصة لا تكـون قصة إلا إذا كـانت حقـا وصدقـا من اعمال الخيال . وإذا جـاء من يخلط بين نفسـه وبين الخيال ، فهو إذن اشبه بـاللص في الخرافة الشعبية ، الذي وقف امـام المسجد مع حشد المصلين يـدعي الصلاح والتقـوى ، وما أن سمـع صوتا يقـول بأن اللص على رأسه ريشة ، حتي رفع يده يتحسـس الريشة الوهمية ، التي لا وجود لها إلا في عقل ذلـك العبقري الذي استخدم خياله وصنـع به فخاً يصطـاد به اللصـوص . نعم ، إن الخيـال يستطيـع القيام بهذه المهمـة . يصطاد اللصوص ويفضح الزيف والأكـاذيب ، ويضئ المناطق المظلمة

في النفوس والمجتمعات . ويبقى مع ذلك خيالا، أبعد من أن نمسك به ، او نشده بأوتاد إلى زمان ومكان محددين ، لأن من أهم عناصره ، التي تدخل في تشكيله وبنائه ، تلك المادة الزئبقية ، التي تمنحه طبيعة مراوغة ، وتجعله عصيا على الإمساك به ، طافحا فوق الزمان والمكان ، يخاطب أهل زمانه ، بمثل ما يخاطب أزمنة اخرى وأجيالا اخرى .

أقول ، جاءت أغلب هذه القصص معنية بالهم السياسي ، فالكاتب الذي يستقبل ضيوفه الوهميين من شخصيات الخيال ، التي تطرق بابه تبحث عن مؤلف تستخدمه في صياغة أفكارها ، سرعان ما يكتشف أن هذه الشخصيات كثيرة الإلحاح والعناد ، وإنه لن يستطيع أن يردها ويقفل أمامها الباب ، وببراءة استجبت لما تريده شخصيات الخيال التي تتحرك وتتنفس وتتكلم عبر هذه القصص ، واكتشفت أن بعض هذه الشخصيات كان حاد اللهجة ، شديد الانفعال ، يقول كلاما اشبه بقصائد الهجاء ، والأكثر بؤسا وتعاسة أن كثيرا من هذا الكلام جاء ينتقد ممارسات وسلوكيات الحكام ، بحيث صرت أعاتب نفسي وألومها لأنني استجبت لإلحاح هذه الشخصيات المليئة بالغضب والإحباط ، قائلا لنفسي ، «أين تمضي أيها الصعلوك بين الملوك» ألا يكفي ما تصنعه من أعداء صغار بسبب ما تكتبه ، حتى تصنع لنفسك أعداء من السلاطين .

المهم ، وقعت الواقعة ، وخرجت هذه الأقاصيص إلى النور، وصارت مثل الكائنات الحية التي ينجبها الأحياء ، فتنفصل عنهم وتستقل بحياتها عن حياتهم ، وتخرج عن مجال سيطرتهم ، حتى وان تحملوا أحيانا اوزارها

وآثامها . اكتشفت ايضا أن كتابتي لهذه القصص ، جاءت متزامنة مع كتابتي لقصص أخرى ، جمعتها في كتاب خاص بها هو «مرايا فينيسيا» ، في حين وضعت القصص السياسية في هذا الكتاب ، وأضفت إليها مجموعة القصص القصيرة جدا التي كتبتها في فترات متفاوتة وهي «الاطفال» و«تأشيرة دخول إلى عالم البراءة» و«ثلاث قصص من زمن الحرب» لأنني رغم مضي أعوام كثيرة علي كتابتها لم أضمها إلى مجموعاتي القصصية وأن تسلل بعضها خطأ إلى كتب المقالات . وهكذا أجريت عملية فك ارتباط بين القصص السياسية وغير السياسية (هل هي حقا غير سياسية؟) لكي لا تتحمل الأخيرة جريرة الاولى .

ولكي لا أكون متناقضا مع نفسي ، فأنني سأكتفي بابداء هذه الملاحظة التي قد لا تهم سوى الباحثين ، لكي لا أفسد على القارئ فرصة أن يلتقي مع النص دون وساطة او تفسير ، ملتزما بما ينصحنا به أحد أسلافنا العظام ، ابو حيان التوحيدي ، عندما يقول :

«لا تفصح عما تكون الكتابة عنه أفصح» .

«المؤلف»

خمس خنافس تحاكم الشجرة

خمس خنافس كبيرة سوداء رآها «بركـه» مؤذن المسجد، تدفن رؤوسها في بعضها البعـض، وتنصب محكمـة لإدانة شجـرة الزيتـون التي تقـف بمفردها فوق الهضبة الجرداء المحاذية للقرية.

لا أحد يعرف عمرهـا، فهي هناك مرسومة فـوق صفحة الأفق وكأنها وجـدت منذ الأزل. ومـن موقـع اجتماعهم في سـاحـة القريـة، عندمـا يتحلقون حـول عالة الشاي في لقـاءات العشية، تطل عليهـم الشجرة، وهي تنتصـب فوق الهضبـة القريبـة وكأنها قلعـة مصنوعـة من أغصـان خضراء، تهيمن على فضاء القـرية، ومن خلفها ترسم الشمـس الغاربة لوحة تضج بألوانها المشعة، فتبدو الشجرة وسط مهرجان الضوء واللون، وكأنها كائن أسطوري، يزرع في قلوبهم مشاعر المهابة والإجلال.

لقد تـوارثوا جيـلا عن جيل الإيمان ببركـات هذه الشجـرة، وواصلوا تقاليـد الآباء والأجداد، في الاعتناء بها. يـزورونها أثناء المواسم الـدينية، ويقيمون صلاة الاستسقاء تحتها أيـام الجفاف وغياب المطر، ويعلقون في أغصـانها الأعـلام الخضراء التـي يضعونها عـادة فـوق أضرحـة الأوليـاء والصالحين، وينتفعون بثمار زيتـونها فلا يضيئون قناديـل الأفراح والموالد

إلا مـن زيتهـا المبـارك، ويعتقـدون بـالجدوى الطبيـة لهذا الـزيـت فيستخدمـونه في عـلاج مرضـاهم، ويتناقلـون الحكايـات المتواتـرة عن معجزات حققها زيتها وزيتونها مع المرضـى، كما يتناقلون ما سمعوه من أسلافهم عن تاريخ هذه الشجرة التي كانت موجودة عندما أنشأ جدهم الأول هذه القريـة . فقد ربطته بها علاقة امتنان واعتراف بـالجميل، منذ أن أحنت عليه أغصـانها وأخفته عن أعين جند السلطان الـذين صعدوا خلفه هذه الهضبة يريدون الفتك به . منحته الحماية والأمان حتى زال عنه الخطر، فقرر أن يبقـى بقية عمره مجاورا لها، وجاء بـزوجته وأولاده وابتنى لهم بيتا في سفح الهضبـة . ولاشك أن كل من يراها يشهـد بأنها شجرة لا تشبـه الأشجار الأخـرى، وأن بها سرا معجـزا أنبتها وأبقـاهـا فوق هـذه الهضبة، فهي هضبة عارية جرداء، ذات صخور بركانية سوداء، وأخري من الصـوان الذي يلمـع طوال النهار مستقطبـا ضوء الشمـس، ووسط هذه البيئة الموحشة التي لا تسمح بظهـور عشبة واحدة، تنتصب شجرة الزيتـون هذه، منفـردة وحيدة، دائمة الاخضرار والـرواء، غزيـرة الورق والثمار والظـلال، عظيمـة الجذع والأغصـان، لها لحاء خشـن كثير النتوءات والتجاعيد، يمتلئ بتكوينات وخطوط تتشابك كأنها حروف لغة مجهولـة لا يعيها البشر الـذين يقطنـون هذا المكـان، ويعتبرونها طلاسـم وأسرارًا لايفك رموزها إلا من رفع عنه الحجاب .

والشجرة منذ أن وجـدت وهي ملك مشاع لكـل الناس، بما في ذلك أناس يـأتون مـن خارج القريـة، التماسا لبركـاتها، أو من أجـل الانتفاع بحبات زيتونها لعلاج مرضاهم، وقد توارث الرجال الذين يقيمون الأذان

في مسجد القـرية، مهمـة الاعتناء بها، وتفقـد أحوالها كـل يوم، وطـرد الأطفال الذيـن يعبثون بها وأحيانا إقـامة الصلاة ورفع الأذان بجـوارها. وآخر هؤلاء الرجال، درويش من أتباع الطريقة العيساوية اسمه «بركه»، أو هذا هو الاسم الذي منحه له الناس حتى صار بديلا عن اسمه الذي ولد به. وقد كان «بركه» يقضي معظم يـومه تحت شجرة الزيتون، وأحيانا يبقي طوال الليل هناك يرتـل أوراده وتسابيحه، وينقل للناس في الصباح مـا كان يسمعـه أثنـاء الليـل من أحـاديـث الشجـرة مع أرواح الأوليـاء والصالحين الـذين تستضيفهم، والـذين يأتون لـزيارتها من أقصـى بقاع الدنيا، وكـان أكثر المصدقين لحكاياتـه أولئك الذين برئوا مـن أمراضهم بسبب الوصفات الطبيـة المصنوعة من زيتها وزيتونها وأحيـانا من منقوع أوراقها الـذي يصنعون منـه شرابا يتناولـه الأصحاء مـن أهل القـرية كما يتناوله المرضى توسلا للشفاء.

وكان مـوسم نضج ثمار الـزيتون عيدا، يقيمـون له الأفراح، ويـأتون بمن يضرب الطبلـة والمزمار، ويشتركـون نساء ورجـالا في جنيه وتجميعـه وتـوزيعه فيما بينهـم، ويتركـون بقية الثمار التـي لم تنضـج بعـد لعابـري السبيل، والغربـاء الذين يزورون الشجـرة في مثل هذا الموسم. ولكـن ما حـدث هذا العـام أثار فـزع أهل القـرية جميعـا، وجعلهم يـؤمنون بـأن الشجرة غاضبة منهم، فقد امتنعت شجرة الزيتون عن أن تلد زيتونا هذا العام. إن براعـم الثمر ما أن تبدأ في الظهور، حتي تـذبل وتجف وتسقط قبل أن تصير ثمرا.

بدا الأمـر مثيرا للحيرة والاستغراب، فهـذه أول مرة يـرون شيئاً كهـذا

يحدث . حتي فيما يتواتر من حكايات الأسلاف ، لم يرد ذكر موسم واحد امتنعت فيه شجرة الزيتون عن تقديم عطائها السمح الكريم لأهل القرية ، فما الذي حدث؟ هل هي الشيخوخة؟ ولكنها شجرة نجت من قوانين الشيخوخة بما لها من أسرار وكرامات . بدليل أنها ماتزال وارفة الأوراق ، تمتلئ أغصانها رواءً ونضارة ، وهذا يعني أيضا أن الموارد الجوفية تحت الصخر، التي سقت عروقها على مدى العصور مازالت كما هي ثرية غزيرة ، فما الذي جرى؟ لعلها غاضبة لأن بعض شباب القرية صاروا يتخذونها مكانا لقضاء ساعات الفراغ ، يحملون إليها أجهزة التسجيل والمذياع ويرقصون ويغنون ، وأحيانا يتناولون الخمر بجوارها ، ورأت في ذلك استهتارا بها وعبثا بمواثيق الشرف التي ربطت بينها وبين أهل القرية الذين عالجت مرضاهم جيلا وراء جيل ، وأضاءت بزيتها بيوتهم وأنقذتهم من المسغبة في أوقات المحن والمجاعات .

ـ ولكن الأمر أكبر من مجرد تصرف طائش لبعض الشباب .

يقول أحد الجالسين في ردهة السوق ، يرتشف كوب الشاي بصحبة رفاقه ، وينظر في أسى إلى الأفق المتوهج الذي يحيط بشجرة الزيتون .

ـ إن الذي أغضبها أكثر خطورة من ذلك . إنه شئ يتصل بسلوكنا جميعا ، بتلك الروح التي كانت تربط أهل القرية بعضهم ببعض ، والتي تفككت وأصابها الجفاف .

ويثني رفيق آخر على كلامه قائلا :

ـ نعم ، نعم . انظر إلى سجل الحوادث في مركز الشرطة . لقد ظلت

صفحاتـه بيضاء لاتستقبل حادثـا واحدا نعجز عن حلـه، لعشرات بل مئـات الأعـوام. ولكن أنظـر هـذه الأيـام، إن حـوادث يوم واحـد مـن المشاحنـات والنزاعات كفيلة بـأن تملأ سجلا كاملا، فكيـف لاتغضب احتجاجا على هذا البلاء الذي حل بأرواحنا.

وينفـي رجل آخـر، ممن نـالوا حظـا من التعليـم، أن يكون في الأمـر غضبا، إنما هو مرض طارئ ألمّ بالشجـرة وسوف تبرأ منه في الموسم القادم إذا أسعفـت بالعـلاج. فيستنكـر الآخرون كـلامـه، لأن شجـرة مباركـة مثلها، نبتـت في الأرض الخلاء، وضربت الصخـر، وعاشـت على مدى العصور عفية، وارفة الظلال والأغصان، لا يمكن أن تمرض أبدا.

ويري الحاضرون «بـركه» المؤذن، قـادما في طـريقه إلى صعـود الهضبة فيتجهون إليه بـأنظارهم، يطلبون تفسيرا لما حدث، فهو بحكـم العلاقة الحميمة التي تـربطه بها، أكثر الناس قدرة على فهمها ومعـرفة الأسباب التي أغضبتها. فيجلس بركه صامتا لبعـض الوقت وقد ترقرقت في عينيه العبرات، ثم يقـرر أن يخبرهم بما رأى مقسما، أنـه لايقول إلا الحق، لقـد رأى بعينيه اللتين ستـأكلهما الخنافـس والديـدان، خمس خنافـس سوداء ذات أحجام كبيرة كالقنـافذ، تثير حشرات الجبل ضد شجـرة الزيتون، وتتفق فيما بينهـا على أن تعقد محكمـة لمحاكمـة الشجرة وإدانتهـا. وإنه سمع وهو يتكـئ على جذع الشجرة، وقد أسبـل عينيه متظاهرا بـالنوم، التهم التي وجهتها محكمة الخنافس للشجرة. ويزحف الجالسون نحوه، يقتربـون منـه ويصنعـون حلقة تضيـق أكثر كلما استرسـل في الكـلام، يسألونه بلهفة عن هذه التهم، وعن الجريمة التي ارتكبتها شجرة الزيتون

المباركة في حق حشرات الجبل، فينقل إليهم «بركه»، كيف أن الخنافس تتحدث عن الأذى الذي لحق بها، كما لحق بأجيال سبقتها من أهلها ومن أهل الحشرات الأخرى، نتيجة وجود هذه الشجرة، فهي شجرة طفيلية كما تقول الخنافس، جاءت تسكن جبلا لاتنتمي إليه ولاينتمي إليها، تاركة البساتين والسهول والأودية والجبال الخضراء لتزاحم الحشرات في هذا المكان، وهو حفر وصخور وأحجار متكلسة سوداء وبيضاء وحمراء، لجأت إليها هذه الحشرات واستوطنتها، لأنه لا وطن لها غيرها ولقد أضارها وجود هذه الشجرة، دون أن يحقق لها نفعا، فهي لاتتداوى بأوراقها ولا تتغذى بزيتونها، ولا تستسيغ زيوتها. ومن حق حشرات الجبل أن تعيش آمنة بين أحجارها وصخورها بعد عصور من المهانة والأذى، فبسبب هذه الشجرة جاء البشر يتسلقون الصخور والحجارة إلى عالمها، ويقتحمون ديارها، يحملون معهم حقدهم التاريخي ضد الخنافس والديدان والحشرات الأخرى، يدوسونها بأقدامهم ويسحقون رؤوسها بحجارتهم ولولا هذه الشجرة لعاشت الخنافس والديدان والعقارب والسحالي هانئة آمنة.

تضيق الحلقة حول «بركه» وهم يسألونه عن النتيجة. ماذا قالت الشجرة وكيف دافعت عن نفسها، وما هو الحكم الذي أصدرته محكمة الخنافس ضدها، ويظل بركه صامتاً لا يجيب، فالمحكمة لاتزال قائمة تستمع لأقوال الشهود الذين حشدتهم لإثبات التهم ضد شجرة الزيتون، والشجرة ترفض أن تقول كلمة واحدة أمام محكمة الخنافس.

يصدقه البعض، ويسخر من قوله البعض الآخر، ولكن بركه يتركهم

يتجادلون، ويذهب صاعدا الهضبة إلى حيث شجرة الزيتون، وقد بدا الأفق أكثر احمرارا فانعكست حمرته فوق أحجار الصوان التي بدت مثل بقع كبيرة من الدماء وسط رقعة السواد التي تصنعها الصخور البركانية.
ومن هناك من فوق الهضبة، أطلق «بركه» صرخة موجعة طويلة، رددت صداها الهضاب البعيدة، وأفَزعت أهل القرية الذين تركوا مجالسهم وبيوتهم ودكاكينهم، وتسابقوا جميعا يتسلقون الهضبة إلى حيث شجرة الزيتون، وما أن وصلوا إلى هناك حتى رأوا مشهدا عجيبا، رأوا شجرة الزيتون وقد اختفت أوراقها وأغصانها كما اختفى جذعها كله، تحت طبقة كثيفة من الخنافس والديدان وأنواع غريبة من النمل الاسود والأحمر، وأكداس من الحشرات الطائرة ذات الطنين والأزيز. جاءت بأعداد لاتحصى تهاجم شجرة الزيتون، وتتسلقها حتى آخر ذؤابة فيها.
وانتشرت الحشرات الطائرة تصنع سحبا فوقها وحولها وتحوم فوق رؤوس أهل القرية وتحط فوق وجوههم وقد وقفوا مشدوهين، يدفعون عن أنفسهم هجوم الحشرات. تسمروا في أماكنهم عاجزين عن فعل أي شئ أو قول أي شئ عدا عامل أجنبي من الوافدين حديثا إلى القرية جاء به الفضول مثلهم إلى الهضبة. وما أن رأى هذا المشهد، حتى عاد مهرولا إلى القرية، من أجل أن يأتي بآلة التصوير ويلتقط صورة لهذا الحدث الغريب، موقنا بأنه سيفوز بجائزة ثمينة من تلك المجلة المصورة في بلاده التي تحتفي بنشر أغرب الصور.



المطر وأحلام السلاطين

[حكاية عربية قديمة يحتكـر السلاطين وحدهم حق نشرها وطباعتها وروايتها وإعـادة كتابتهـا وإنتاجها يـوما وراء يـوم وعامـا وراء عام ، ولا يبيحون حـق نقلها واقتبـاسها إلا لأتبـاعهم مـن رؤساء الشرطـة وحكام الاقاليم والولايـات] .

كان يا ما كان ، في قديم الـزمان ، سلطان من سلاطين بني قحطان ، يحب الصمت ويكـره الكلام (حتي صـار الناس يتكلمون بـالإشارة ولا يستخـدمون ألسنتهـم إلا في الهتـاف) ، وجعل شعـار دولتـه الأمن قبـل الطعام ، (ولذلك اختفت أرغفة الخبز من السوق بينما بلغت قوات الأمن رقما قياسيا حتى أصبح لكل مواطن شرطيان) .

وذات صباح ممطـر استيقظ السلطـان القحطاني من نـومه منـزعجاً . كان قـد سمع رعداً كثيراً ، ورأى حلما مفزعـا ، فأرسل على عجـل يطلب من شعبه الحضور إلى القصر والمثول أمامه في التو والحين .

جاء الشعب مهرولا هاتفاً يعبر عن حبه العظيم للسلطان .

كان الجو عاصفا ، والمطر ينهمر غزيرا ، وكان الشعب يقف أمام شرفة

القصر يتقاطر ماءً ويرتجف برداً ولكنه يشتعل حماسة ولهفة لرؤية السلطان. خرج السلطان إلى الشرفة وأشار بيده الكريمة إلى الشعب أن يتوقف عن الهتاف.

وقف الشعب تحت المطر صامتاً، خاشعاً، ينظر إلى السلطان الذي مضي يقول:

ـ رأيت البارحة ياشعبي العزيز حلماً.

ارتفعت هتافات الفرح والاغتباط، وتعالت الدعوات بالهناء والصحة وطول العمر للسلطان، فالشعب ينتظر دائما هذه الاحلام ويترقبها ويمضي في الحياة مسترشداً بها، لأن الأحلام التي يراها السلطان في الليل تصبح في صباح اليوم التالي قوانين ترسم للشعب الطريق الواجب اتباعه وتريه حقوقه وواجباته، وتحدد له ماذا يفعل وماذا يقول وماذا يشرب أو يلبس أو يأكل كما تحدد له مواعيد نومه واستيقاظه وكيف يفكر وكيف يصادق وكيف يتزوج وماذا يسمي أطفاله، ولذلك فإن كل حلم جديد يحلمه السلطان هو مناسبة للفرح والابتهاج وتأليف الهتافات الجديدة تمجيدا للسلطان وأحلامه.

ومرة أخرى أشار السلطان بيده الكريمة إلى الشعب أن يتوقف عن الهتاف قائلا:

ـ رأيت يا شعبي العزيز في المنام أني أذبحك..

قالها السلطان، حزينا متألماً، تخنقه العبرات، قالها بصوت يلونه الأسى والشجن، فهو يحب شعبه حبا شديدًا، أكثر من حبه لقطته

السياميـة «ميشا» ، وأكثـر من حبه للكلـب الذي تلقاه هـدية مـن ملك الصقالبة وصار قـريبا إلى قلبه حتى خصص له ساعـة في الإذاعة كل يوم لايذاع فيها إلا نباحـه العذب الجميل ، بل هو يحب شعبه أكثـر من حبه لفطائر جراد البحر التي تأتيه مخلوطة بتوابل الهند لكي يعالج بها الضعف الطارئ الذي أصابه أخيراً ، نعم ، أنه يحب شعبه أكثر من هذه الأشياء ، فهي كائنـات وأطعمة يستطيع فراقهـا يوما أو يومين ، أمـا شعبه الحبيب فهو لا يستطيع أن يفترق عنه أو يتخلى عن حبه وحكمه يوما واحداً .

ارتفعت هتـافات الشعب الذي وقـف تحت المطر يتلقى آخـر احلام السلطان .

ـ نموت نموت ويحيا السلطان .

ـ نحن فداء السلطان .

ابتهج السلطان عنـدما رأى الشعب صابرا في مواجهـة هذا الامتحان العسير ممتثلا لما تقوله الأحلام ، واستأنف حديثه قائلا :

ـ تعلم يـا شعبي العـزيز مـدى محبتـي لك ، وحـرصي علي حياتـك ورغبتي في البقاء معك إلى الأبد . ولكن لـلأحلام منطقها وحكمتها فهي لا تنطق عن الهوى ولا تقـول إلا ما تريده القوى الخفية المجهـولة التي لا سبيل إلى فهمها وما على البشر الفانين إلا تنفيذ أوامـرها ، وليس غريبا يا شعبي العزيز ان يتـوافق هذا الحلم مع مجيء الأمطار التـي تبشر بمواسم الخصـب والخير والازدهار، ومعنـى ذلـك انـه لا يأس مـع الموت وأن في موتـك أيها الغالي والحبيـب إلى قلبي ، حيـاة لهذه الأرض وإنقاذًا لها مـن الجفاف والقحط .

هبـط السلطان القحطـاني بعد ذلـك مـن شرفته وركـب محفته التـي يحملها العبيد ومضى يقود شعبه إلى منطقة الذبح تحت الجبل .

وبعينين تمتلئان بـالدموع أخـرج السلطان سكينـه وأمر عبيده الـذين أمسكوا بـالشعب وألقـوا به فـوق الأرض أن يترفقوا بـالشعب في لحظـاته الأخيرة وأن يضعوه في مواجهة القبلة لكي يكون الـذبح متفقا مع القواعد والأصول الشرعية .

رفـع الشعـب بصره إلى السماء ، وانتظر ان تحدث المعجـزة ، وتـرسـل السماء كبشـا يفتـديـه مكـافـأة له على صبره وامتثـالـه لما تقـولـه أحـلام السلطان ، ولكن السماء أقفلت وجهها وامتلأت بالسحب السوداء . لقد توقفـت منذ زمن طويـل عن إرسال الكبـاش إلى الارض ، وافتداء البشر الذين يسلمون رقابهم للسلاطين .

مد الشعب عنقه .

ومد السلطان سكينه ليذبح شعبه وهو يلهج بالدعاء ويذكر اسم الله بصوت يلونه الحزن والانفعال الشديد .

في حين كان المطر ينهمر بغزارة مبشراً بمواسم الخصب والازدهار.

أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى

اسمحوا لي أيها الزملاء، أعضاء هـذه الندوة، ان أعتمد الغموض لا الوضـوح، والمراوغة لا المصارحة، كسبيـل وحيد لمعالجة هـذه القضية، الحافلة بالحقول المعرفية والدلالية، والإشكاليات المضمرة والظاهرة والتي يحيلنا إليها عنوان ندوتنا : «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي» وسأحاول أن أحقق المعجـزة بأن أحتوي كـل هذا الـزخم في وعاء زمنـي قدره عشر دقائق التزاما بما حدده السيد رئيس الجلسة. ودون إبطاء، أقول، بأننا - سيداتي وسادتي - أمام أربع كلمات يتشكل منها عنوان هذه الندوة، أراها بعين البـاحث، أربعـة فروع لشجـرة سامقـة، استجابـت لدورة الحيـاة الجليلة الخصيبة، ونواميس التوالد والتناسل، فأنتج الفرع الواحد، أربعة فروع جديدة، تعيد بدورها إنتـاج نفسها، ليطرح كل فرع أربعة أخرى، في عمليـة تبـدأ ولا تنتهـي، حتي تملأ الشجـرة أركـان الأرض الأربعـة، باعتبارها معادلا رمزيا لدورة الحياة ذاتها.

وعودة إلى الكلمات الأربع التـي تعبق بجلال الأمهات، كما احتـواها العنوان نقول :

١ ـ هناك أولا «أزمة»

٢ ـ وهناك ثانيا «ديمقراطية»

٣ ـ وهناك ثالثا «وطن»

٤ ـ وهناك رابعا «عربي»

هكذا حددنا الإطار الدلالي والمرجعي، العلمي والمنهجي، الذي يعيننا على مقاربة الموضوع، بكل مايزخر به من مفاهيم وأنساق وعلائق.

أولا ـ الأزمة

لكي نصل إلى نتائج تستفيد منها الأجيال القادمة (وهنا أبدي أسفي الشديد لأن الأجيال السالفة، لن تستطيع، وقد انتهى زمانها، أن تستفيد من نتائج هذا البحث) لابد أن نسأل أنفسنا، ونحن نتحدث عن الفرع الأول، هذه الأسئلة الأربعة:

١ ـ لماذا الأزمة؟

٢ ـ ومن أين جاءت؟

٣ ـ وكيف تفاقمت حتى أصبحت أزمة؟

٤ ـ وماهي مراحل الانفراج التي نمت في رحمها هذه الأزمة؟

إن كل هذه الأسئلة تفضي بالضرورة إلى إشكالية محددة تقتضي منا وضع تعريف للأزمة. فالأزمة لاتكتسب صفتها هذه، إلا إذا كانت شيئا عارضا، أدخل عناصر التأزم على حالة تميزت بالانفراج. فمتي وجدت

هذه الحالة التي انتهت بتأزم الديمقراطية في الوطن العربي. وإذا تنازلنا عن حقنا في الاعتراض واعتبرناها قد وجدت، بحسب مايقول عنوان الندوة، فما هو عمر هذه الأزمة التي نعنيها. إننا بالتأكيد أمام حالة استثنائية لم يعرفها تاريخ الأزمات التي شهدتها المجتمعات البشرية، فهذه أول أزمة لانستطيع أن نحدد لبدايتها تاريخا معلوما، إلا إذا عدنا إلى حقب الحياة البدائية بأطوارها الأربعة التي قرأناها في الكتب:

١ ـ عصر الجليد الكبير (أي مع ظهور الحياة البشرية، ويمكن حينئذ نسبتها الي هذا العصر فيصبح العنوان الأزمة الجليدية للديمقراطية في الوطن العربي).

٢ ـ العصر الحجري القديم (عندما اهتدى الناس إلى الأدوات الحجرية، وصنعوا منها خناجر يذبحون بها بعضهم البعض، ويمكن هنا نسبتها إلى الحجر، فنسميها الأزمة الحجرية ... الخ).

٣ ـ العصر الحجري الحديث (عندما ارتقى مستوى الاقتتال بين الناس إلى المبارزة بالخناجر التي قدحت أولى الشرارات، وجعلته يكتشف النار، ويمكن في هذه الحالة نسبتها إلى النار، لتصبح الأزمة النارية .. الخ).

٤ ـ عصر البرونز (عندما وصل الإنسان إلى استخدام المعادن في صنع خناجره الأكثر فتكا بالآخرين، ويمكن ان نسميها في هذه الحالة الأزمة البرونزية ... الخ).

ونتوقف عن تقديم مزيد من الحفريات ، لكي نترك للباحثين من أبناء الأجيال القادمة ، تعميقها وتوسيعها والاهتداء من خلالها إلى العمر الحقيقي لهذه الأزمة .

وننتقل سريعا إلى جوانب أخرى من شأنها أن تساعدنا في تشخيص الحالة . ولابد ان نطرح هنا الأسئلة الأربعة التالية التي تتصل بطبيعة هذه الأزمة ، وهل هي :

١ ـ سياسية ؟

٢ ـ اجتماعية ؟

٣ ـ اقتصادية ؟

٤ ـ نفسية ؟

وإذا اعتبرناها أزمة تشمل هذه الجوانب الأربعة جميعها . وأردنا أن نتحدث عن جانبها السياسي باعتباره أكثر أهمية وإلحاحا ، فما هي الإشكاليات الأربع التي يثيرها في أذهاننا هذا الجانب .

١ ـ هل هي إشكالية الحاكم فقط (ونحن هنا نتحدث عنه بمعناه المطلق ، لكي لايسئ فهمي العاملون بالأجهزة الأمنية من زملائي أعضاء النّدوة) .

٢ ـ هل هي إشكالية المحكوم أيضا (وبرغم أنه يجب أن يبقى مهمشا ، كما يريد حاكمنا العربي المبجل ، إلا أن ضرورة البحث تستوجب ذكره) .

٣ ــ أم هي إشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم (ونحن نعرف أن الحاكم العربي، حفظه الله، قد حسم هذه الإشكالية فلم يعد لها وجود في بلادنا ولكننا نوردها هنا لأسباب نظرية أكاديمية فقط).

٤ ـ أم هي إشكالية الأداة التي تحكم هذه العلاقة (ولا نقصد البوليس طبعا، فلتعذرني مرة أخرى أجهزتنا الأمنية الحبيبة).

وإذا لجأنا إلى الحيل المعرفية، وحاولنا الاهتداء بها لإيجاد تعريف لكل إشكالية على حدة، فماذا نقول عن إشكالية الحاكم، وعن أي نوع من أنواع الحكم الأربعة، سيكون حديثنا:

١ ـ هل هو حكم الولاية؟

٢ ـ هل هو حكم الوراثة؟

٣ ـ هل هو حكم الإنابة؟

٤ ـ هل هو حكم التفويض؟

ومادام الحاكم العربي، الذي حبتنا به ربات الحظ السعيد، ليس بحاجة إلى أن يسأل نفسه هذه الأسئلة، فما حاجتنا نحن إلى طرحها اليوم. فهي بالتأكيد أسئلة زائدة عن الحاجة، من واجبنا أن نهملها، وننتقل إلى هذا «المحكوم» ونسأل عن ماهية تلك الشروط الأربعة التي تؤطر وجوده، وفق الأنساق الفكرية المعروفة، وهذه الشروط هي:

١ ـ شرط المواطنة.

٢ ـ شرط المشاركة.

٣ ـ شرط المعارضة .

٤ ـ شرط «الأمان» .

ولقد ألهم الله المحكومين في الوطن العربي ، إلى اكتشاف العناء الذي يصيبهم نتيجة الحياة وفق هذه الشروط ، فتنازلوا عنها كاملة إلى جلالة السلطان ، وما عاد ثمة موجب لشرحها وتفصيلها . ويبقى من الترف أيضا الحديث عن طبيعة هذه العلاقة وأركانها التي تضبطها التشريعات والدساتير ، بما فيها العناصر الأربعة التالية :

١ ـ المساواة أمام القانون .

٢ ـ حرية العقيدة .

٣ ـ الحرية الفردية .

٤ ـ العدالة الاجتماعية .

وإذا كان الحديث عن هذه العناصر ، قد أصبح ترفا لاطائل منه ، ولا علاقة له بتشخيص الأزمة ، فماذا يمكن أن نقول عن الأداة التي تضبط هذه العلاقة والتي اتفق المشرعون على أنها أربع سلطات لايكتمل كيان الدولة إلا بها ، وهي :

١ ـ السلطة التشريعية .

٢ ـ السلطة التنفيذية .

٣ ـ السلطة القضائية .

٤ ـ وسلطة رابعة هي سلطة المنابر الإعلامية الحرة .

وليس غريبا بعد ذلك، أن نرى، أن كل هذه السلطات قد اجتمعت في شخص واحد كما هو الحال في بلادنا العربية، دليلا أكيدا علي العبقرية التي يتمتع بها زعماء أمتنا. وسأرجئ الحديث في التفاصيل إلى آخر المحاضرة، لأنتقل إلى الجانب الاقتصادي للأزمة، بأنواعه الأربعة :

١ ـ الاقتصاد العشوائي (الذي تخلت عنه الدولة العصرية، ولم تنتبه إلى أهميته سوي شعوبنا العربية فأبقته معها وعضت عليه بالنواجذ).

٢ ـ الاقتصاد الحر (وهو مايعرف أيضا باقتصاد السوق، لأنهم يسوقون إليه الشعوب بالعصا وفق النظام العالمي الجديد).

٣ ـ الاقتصاد الموجه (الذي يوجه الشعوب نحو حتوفها أحيانا).

٤ ـ الاقتصاد الحر موجه (وهو الاقتصاد الذي يجمع بين الحر والموجه، ويسمونه أيضا اقتصاد عروس البحر، نصفه سمكه ونصفه إنسان).

وإذا تركنا هذا الجانب، لكي نعود إلى شرحه في نهاية المحاضرة فماذا عن الجانب الاجتماعي، ونحن نعرف أنه يقوم على الأركان الأربعة التالية :

١ ـ الأسرة.

٢ ـ القبيلة.

٣ ـ الشعب.

٤ ـ الأمة.

وإذا كانت الإذاعات العربية قد عرفت كيف تزرع في نفوسنا حب الأسرة والقبيلة وتربط هذا الحب بأسرة الحاكم وقبيلته، وتجعل من كلمتي الشعب والأمة، مرادفا وغطاء لأسرة الزعيم وقبيلته المبجلة، فما ذلك إلا حرصا منها على تأكيد معاني التضامن والوقوف صفا واحدا خلف الحاكم، في مواجهة أعداء الوطن.

وسنعود في ختام المحاضرة إلى شرح هذه الأركان وعلاقتها بالأزمة. أما الآن فسننتقل بالحديث إلى معالجة الجوانب النفسية التي ورد ذكرها آنفا، والتي يمكن تحديدها فيما يلي:

١ ـ الأنا الخاصة (التي تتعلق بالفرد، بما في ذلك آراؤه وأفكاره وهواجسه التي لايستطيع أن يفصح عنها إلا أثناء النوم).

٢ ـ الأنا الجماعية (التي تتصل بذات المجتمع. وتكون أباً لمن لا أب له، وأماً لمن لاأم له).

٣ ـ الأنا الخاصة والعامة (تعبيرا عن حالة الفرد ساعة اندماجه في المجتمع والتي ينتج عنها مرض العصاب الجماعي كما هو الحال أثناء الاستماع لخطب الزعيم).

٤ ـ الأنا العليا (وهي الأنا التي احتوت إرادة الفرد وإرادة المجتمع وصارت بديلا عنهما وهي الأنا التي لايتوافر عليها سوى الزعيم).

وحرصا على عامل الوقت، سأترك لزملائي الباحثين، الإطناب في تفسير هذه الجوانب لكي أنتقل مباشرة إلى الحديث عن الكلمة الثانية التي وردت في عنوان هذه الندوة.

ثانيا ـ الديمقراطية

وبرغم ماتوافر للباحث الحديث من أدوات الكشف والتحليل وعناصر الفك والتركيب فإن هذه الكلمة مازالت تحتفظ بكثير من أسرارها المغلقة، وترفض أن تمنح نفسها بيسر وطواعية، لمن أراد تشريحها وتحليلها، ولابد أن أسوق ملاحظة أساسية، وهي أن الأصل اليوناني لهذه الكلمة، كلمتان، هي ديموس، وكراتوس، ومعناهما الشعب والحكم، وبرغم أنهما ينفصلان في الأصل اليوناني، إلا أنهما يتحدان ويمتزجان ويتداخلان في بعضهما البعض في الكلمة العربية، وهو دليل واضح علي تأصل الديمقراطية لدى العرب الذين رفضوا حالة الانفصال بين الشعب والحكم فجمعوهما في كلمة واحدة، يتوحد شكلها مع مضمونها، دون انفصال أو قطيعة، ولكن هذا لن يعفينا من تقديم تعريف لهذه الكلمة العامرة بالأضواء والظلال. إنها حكم الشعب. فمن تراه يكون هذا الشعب؟ قد يبدو السؤال ساذجا أيها الزملاء ولكن لاتسرعوا في إصدار الحكم واستمعوا إلى هذه الأسئلة الأربعة:

١ ـ هل نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية، شعب؟

٢ ـ هل نزلاء المعتقلات والسجون، شعب؟

٣ ـ هل الهاربون من التجنيد ومدمنو المخدرات وتجار السوق السوداء، شعب؟

٤ ـ ثم هل الأطفال الذين يتكدسون في عنابر مستشفيات الولادة، والأحداث الذين يقطنون الملاجئ والاصلاحيات، شعب؟

إنهم شعب بالمعنى المطلق، ولكن هل هم شعب بالمعنى الذي تقصده هذه الندوة، قادرون على تأسيس وممارسة الديمقراطية، وإذا نحن أقصينا هذه الفئات كلها وأقصينا معها أعوان السلطة من درك وجندرمة. فمن تراه قد بقي لممارسة هذا الحق الديمقراطي؟ ألا يضعنا ذلك وجها لوجه أمام الأقلية وعلاقتها بالأغلبية، فأين إذن هذه الأغلبية ؟ ثم دعونا نسأل أي حق نقصد؟ هل نحن نتحدث عن:

١ ـ حق الاقتراع؟

٢ ـ حق التصويت؟

٣ ـ حق الاستفتاء؟

٤ ـ حق الانتخاب؟

وبرغم أنها جميعا فروع لأصل واحد ينتهي في أنظمتنا إلى رئيس الدولة الذي لا اقتراع ولا تصويت ولا استفتاء ولا انتخاب إلا لتأكيد حضوره واستمراره، فلماذا الاختلاف حول هذه القضية، وغيرها من قضايا مثل هل نجعل الاقتراع علنيا أم سريا لأنه كما تعرفون جميعا لا سرية أمام حاكمنا العربي، الذي وهبته العناية الإلهية القدرة على أن يرى ويعرف كل شئ.

ولعله من واجبنا ان نسأل هنا وفق أي نمط من الأنماط الأربعة التالية سنمارس هذا الحق. هل نمارسه وفق :

١ ـ الديمقراطيـة التقليدية (وهي التي تحتاج إلى بـرلمان وأحزاب ودستور وصحـافـة ورئيـس تهاجمه الأحـزاب، ويهاجمه البرلمان، وتهاجمه الصحـافة، ويحدد مـدة حكمه الـدستـور. فأي رئيـس هذا الـذي تسمح كرامته بمثل هذا العبث).

٢ ـ الديمقراطية الاشتراكية (وليس للديمقراطية فيها سوى دعوة التكافل والعدل الاجتماعـي، ومع ذلك فقـد أفقرت الأغنيـاء، دون أن تغني الفقـراء وضمنت المسـاواة لكـل الناس، عـدا أفـراد الحزب الواحـد الحاكم الذي يحكم مدى الدهر. ومـن أهم مزاياها أنها تصلح غطاء لفرد أو قبيلة).

٣ ـ الديمقراطيـة المباشرة (جربها قدماء الإغريق، عندمـا كانوا ينقسمون إلى فئتين، فئة تحكم هي فئة الأسياد، وأخرى تعمل هي فئة العبيد، وعنـدما تحرر العبيـد لم يجد الإغريـق وسيلـة لتطبيقها، لأنهم وقفـوا حائرين من منهم يعمل ومن منهم يحكم).

٤ ـ الـديمقراطية شبـه المباشرة (وهي التي تعتمـد علي المجالس البلـدية والحكم المحلي فيا فرحة المختار في كل قرية عربية).

وأخيرا أقول لكم أن أسئلة الديمقراطية لاتنتهي، لأن كل سؤال يطرح أسئلة جديدة، وأعـدكم بأن أعود لطرح الأسئلة، واقتراح أجـوبة عنها، مع نهاية هـذه المحاضرة. أما الآن، فقد حان وقت الحديـث عن الكلمة التالية في عنوان هذه الندوة.

ثالثا ـ الوطن

واسمحوا لي أن أضع يدي على قلبي وأقول «آه ثم آه ياوطني» نعم، نعم، فالقلب يخفق بعشق هذا الوطن، والدماء تجري في العروق ممزوجة به، وما كل تلك القصائد التي قرأناها، والأناشيد التي حفظناها منذ الطفولة، والتي تتغني بحب هذا الوطن والولاء له، إلا دليل ساطع على عمق الوشائج التي تربطنا بالوطن، فما معنى هذه الكلمة ياترى؟

١ ـ هل الوطن مساحة من الأرض لها حدود وبوابات؟

٢ ـ هل الوطن قطعة قماش نسميها «العلم» ونرفعها فوق أبنية وسيارات الحكومة؟

٣ ـ هل الوطن حاكم ونشيد رسمي وشرطة ؟

٤ ـ هل الوطن جواز سفر وبطاقة هوية ؟

وإذا كان الوطن كل هذه الأشياء، فكيف يمكن أن نطلق كلمة وطن، على وطن تعددت فيه الرايات والأناشيد الرسمية، وتنوعت فيه جوازات السفر وبطاقات الهوية وتناثرت بين أطرافه الحدود والمخافر والبوابات، وخاض حكامه أشرس الحروب بين بعضهم البعض، إننا هنا أمام حالة استثنائية لم يعرفها تاريخ الأوطان من قبل، ولذلك أعذركم إذا التبس عليكم الأمر وصرتم حيارى أكثر مني في تحديد كلمة الوطن الواردة في عنوان هذه الندوة. ولعلنا إذا وضعنا كلمة «عربي» أمام هذه الكلمة، نجد وسيلة نتعامل بها مع هذه الحالة الاستثنائية، تعيننا على دراستها وفق آليات مغايرة لآليات البحث التي يستخدمها علماء

السياسة في البلاد الأخرى، ولذلك فإنني استميحكم العذر في أن أنتقل مباشرة إلى الكلمة الأخيرة في عنوان هذه الندوة.

رابعا ـ العربي

ها نحن نصل إلى رابع الكلمات في عنوان ندوتنا، وأكثرها أهمية وخطورة فلولاها، لصار الحديث أكثر يسرا وسهولة، إذ ما أسهل أن نتحدث عن الديمقراطية في أي وطن، ولكن أن نقول العربي، فمعنى ذلك أن حقل ألغام معرفية تبدى فجأة أمامنا وأقحمنا في حالة مادية ومعنوية، تقتضي استنفار كل المدارك، والاستعانة بكل أساليب المكر والمراوغة، حتى ننفذ منها بأمان، ونبدأ بمساءلة البديهيات فنقول من ترانا نقصد عندما نطلق هذا النعت، وأمامنا الحالات التالية:

١ ـ يقولها الشاعر العربي مفاخرا بأمجاد الآباء، متباهيا بنفسه، مستخدما ضمير المتكلم «أنا عربي».

٢ ـ ويقولها دركي فرنسي، مستخدما ضمير المخاطب، قاصدا الإهانة والاحتقار «أنت عربي».

٣ ـ ويقولها بطل رواية الغريب مستخدما ضمير الغائب كمبرر لإطلاق الرصاص عليه «إنه عربي».

٤ ـ ويقولها باحث يتحدث عن ابن خلدون، باعتباره من رموز الحضارة الانسانية «كان عربيا».

فهل هي صفة للتفاخر أم الإهانة، هل تعني الشر أم الخير، وإذا

أردنا أن نتجاوز هذه الاعتبارات، بحثا عن تعريف علمي لمعني العربي، فلابد أن ننظر إلى الشروط الأربعة التالية، كسبيـل لتحديد هوية العربي، وهي:

١ ـ شرط الزمان.

٢ ـ شرط المكان.

٣ ـ شرط اللسان.

٤ ـ شرط الانسان.

وعـذرا لهذا السجـع الـذي فـرضته المعـالجة الموضـوعيـة المنهجيـة. واستجابة للقواعد الصارمـة التي اقتضتها هذه المعالجة، نقول، إن شرط المكـان هو الـذي يمنعنا مـن أن نتورط في طـرح سؤال عـرضي، مجاني، مثل:

١ ـ هل السواح عربا؟

لأن السائح الذي ينتقـل من مكان إلى مكان، يمكـن ان ينتمي لأي مكان. ولكننا يمكن نطرح أسئلة مثل هذه الأسئلة الأربعة:

١ ـ هل الأسكيمو عربا؟

٢ ـ هل الهنود الحمر عربا؟

٣ ـ هل قبائل الماو ماو قبائل عربية؟

٤ ـ هل الصقالبة عربا؟

والجواب بحرف واحد، لا. أنهم وأن تشابهت الظروف، وتقاربت الهموم بينهم وبين العرب، وهي كثيرة كما تعلمون، فإن شرط المكان وهو في هذه الحالة الوطن العربي، لم يتوفر لهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الشرط لن يعفينا من طرح أسئلة أكثر حرجا هذه المرة، مثل:

١ ـ هل الأسماك التي تعيش في أنهار وبحيرات وشطوط الوطن العربي، عربية؟

٢ ـ هل الطيور التي تطير في أجواء الوطن العربي وتبني أعشاشها فوق أشجاره عربية؟

٣ ـ هل الديدان والخنافس والفئران وكائنات الغابات والأحراش، في الوطن العربي، ذات أرومة عربية؟

٤ ـ هل الحيوانات الأليفة التي تعيش في بيوت وحظائر العرب، من قطط وكلاب وتيوس وقرود وحمير وأحصنة، عربية؟

هنا نقع في إشكالية كبرى، تضاربت حولها أقوال المفسرين، فلقد قرأنا جميعا كتبا، تتحدث عن مزايا الطيور العربية، وطبيعة الجواد العربي، وتاريخ الأعشاب الطبية العربية، بل وقرأنا قصائد لاحصر لها، تشيد بأشجار النخيل، باعتبارها من رموز الأصالة العربية.

لقد توفر لكل هذه الحيوانات والنباتات، شرط المكان، كما توفر لأغلبها شرط الزمان، فهي مقيمة على تعاقب الأجيال والسلالات فوق هذه الأرض العربية.

ولكن سقط عنها شرطـان، هما شرط اللسان، وشرط الإنسان (وان لم يسقط عنها بطبيعة الحال، حقها في الاستفادة من حل أزمة الديمقراطية في الوطن العربي).

واسمحـوا لي ـ سيـداتي سادتي ـ أن أعود لمنـاقشة هـذه النقاط بعـد الانتهاء من هـذه المقدمة. لأن مايعنيني الآن، هو هـذا الإنسان، الذي توفـرت لديـه شروط الحديث بـاللسان العـربي، كما توفـرت لديـه شروط الإقامة في المكان، وامتداد الأصل والنسـب في الزمان. وبادئ ذي بدء، أقـول، إن الإنسـان كما تعلمـون، أيها الـزمـلاء لايسمـى إنسـانـا، إلا لنسيانه. فما هي يـاترى هذه الأشياء التي نسيها المواطـن العربي، وتأهل بموجبها أن يكون إنسانا. لقد نسي آدم أبو البشر، تعليمات ربه الذي نهاه عن أكل ثمار تلك الشجرة، فكان هذا النسيان، نسيانا مباركا، أدى إلى وجوده فوق الأرض وتعميره لهذا الكوكب. إن انساننا العربي . . .

(يـأتي صوت رئيـس الجلسة، يقـاطع المحـاضر، ويذكـره بأنـه نسي موضـوع الندوة، فـالعودة بـالحديث إلى سيـدنا آدم، يعتبر خـروجا على الموضوع. يهمل المحاضر هذ المقاطعة ويواصل الحديث).

. . . أما مـا نسيه إنساننا العـربي، فيمكن تلخيصه في أربـع نقاط، هي:

أولا ـ الوقت

فقد عاش هذا الإنسـان هازئا بالوقت، لايعبأ بـه، ولا يعمل حسابا

لدورته السريعة، وهذه إحدى المزايـا التي تحسب له، لا عليه، وتضيف رصيدا إلى رصيده الإنساني، باعتباره أكبر من الوقت، وأكثر كرامة وشرفا من أن يشقى بمطاردة عقارب ساعاته التي تصنع في بلاد أجنبية.

(يأتي صوت رئيس الجلسـة، يقاطعه ويذكره بأنـه نسي الوقت المحدد للمداخلة وتجاوزه بأكثر من ربع ساعة. ولكن المحاضر يواصل حديثه، رغم طرقات المطرقة التي يستخدمها رئيس الجلسة).

اسمـح لي، سيـدي الـرئيـس، ان أذكـركـم بخطـورة القضيـة التـي نعالجها، وأهمية النتائج التي وصلـت إليها، والتي تستحق منحي، وقتا إضافيا، يتيح لي، وقد أوشكت على الانتهاء من قراءة المقدمة، أن أنتقل إلى القضية الأساسية. وعودة إلى مانسيه المواطن العربي حتي صار إنسانا أقول:

ثانيا ـ التفكير

فلقـد كانـت ملكـة التفكير، وبحسب مـاتقـوله الـوثـائق التاريخيـة المعتمدة، سببا لابتلاء الإنسان بـأنواع لاحصر لها من الهموم، ويمكنكم النظر في السجل الطبي لأي مثقف ابتلاه الله بداء التفكير، لتعرفوا حجم مايعانيه من أمراض الانفصام والبارانويا، والشعور بالاضطهاد. من هنا أقول، إن المواطن العربي، وقد كافأه الله بحكام يفكرون بالنيابة عنه، قد نسي استخدا م ملكـة التفكير ونجى بذلـك من الآفات والأمـراض التي تجلبها هذه العادة.

(يهمل المحاضر، طرقات مطرقة رئيس الجلسة الذي يطالبه بأن يكتفي بما قاله حتى الآن ويترك المنصة).

ثالثا ـ العمل

ونحن جميعا نعرف أن الرق والاستعباد، والمهانة والإذلال، والعذاب والشقاء، كلها مترادفات لفظية، لكلمة واحدة هي «العمل» فكيف لانعتبر الإنسان العربي، رائدا، ومبشرا ورسولا، جاء يمنح البشرية أمل الانعتاق من هذا الشر، ووعد الحياة الهانئة اللذيذة التي لاتفسدها رذائل العمل، حياة تتأكد فيها إنسانية الإنسان، لأنها تعيده إلى منابعه الأولى عندما كان كائنا من كائنات السماء، قبل ان يعرف الخطيئة ويهبط إلى أرض العمل والشقاء. فالجنة ـ أيها الزملاء ـ لاتكون جنة إلا لأنها لاتطالب الانسان بالكدح صباح مساء. وهكذا فإن إنساننا العربي، وهو يهمل العمل، ويعلن عصيانا مدنيا دائما يشمل المكاتب والمصانع والدواوين، يسميه الحاقدون، إهمالا وتسيبا وكسلا وخمولا وبطالة إنما يعلن ولادة النعيم الأرضي الذي يجدد انتماء الإنسان لأصله الملائكي.

(يقاطعه الرئيس بطرقات المطرقة التي لاينصت لها المحاضر، فيقف الرئيس صارخا متشنجا يسأله أن يتوقف، ويخلي مكانه لمن يليه، يتعالى الصخب داخل القاعة، في حين يواصل المحاضر، إلقاء كلمته).

ثم رابعا ـ وهي إنسانيته

ونصل هنا إلى أكثر المفارقات في تاريخ البشرية غرابة وإعجازا، وهي مفارقة أن يتخلى الإنسان عن إنسانيته ويتناساها، لكي يصير إنسانا. نعم، قد تستغربون ذلك ولكن دعوني أشرح لكم هذه المفارقة، بأكثر المفردات بساطة، إن الإنسان، لايمكن أن يكمل شروط إنسانيته، إلا إذا تنازل عن مزاياه التي اكتسبها بالكذب والباطل والتزوير، وصنع منها جدارا يفصل بينه وبين رفاقه من كائنات الأرض، ولهذا فإن الإنسان العربي، الذي تنازل عن ردائه الإنساني الزائف، ليساوي نفسه برفاقه من كائنات الغابة، ويقبل أن يعيش مثلها، تدوسه أقدام الحاكمين، وتركله أحذية عساكرهم، وتسحق رأسه الكوارث التي تنهمر كالأمطار بسببهم، إنما يؤكد بذلك مبدأ الأخوة والمساواة بين أبناء المملكة الحيوانية.

(تنهمر فوق رأس المحاضر شتائم ولعنات رئيس الجلسة، الذي استنجد بحراس القاعة، فصعدوا إلى المنصة، وأحاطوا بالمحاضر يطالبونه بإخلاء المكان، يتشبث هو بناقل الصوت، ويواصل القراءة وسط الجو الصاخب).

لقد تعاملت باختصار شديد مع الدلالات والإيحاءات التي تحملها أربع كلمات وردت في العنوان. عالجتها وهي متفرقة منفصلة وسأبدأ الآن حديثي عنها وقد اجتمعت واتحدت وأصبحت جملة مفيدة هي «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي» فهل هي حقا جملة مفيدة، وما هي أوجه

الفائدة ياترى، سأقترح عليكم أربعة احتمالات تُفضي هي الأخرى إلى أربعات وأربعات.

(يكون الحراس قد تمكنوا من سحبه وإبعاده عن ناقل الصوت، وهو يقاومهم ويحاول العودة إلى المنصة. يطرحونه فوق الأرض ويجرونه فوقها، فيما تتعالى صرخاته مستنجدا بجمهور القاعة).

أيتها السيدات، أيها السادة، إنني لم أبدأ بعد، دعوني أبلغكم نتائج البحث إن الديمقراطية في خطر، حياتكم في خطر..

(لكن جمهور القاعة لم يعد يعبأ به، ولا بحراسه الذين صاروا يكممون فمه حتى الاختناق، فقد مضى هذا الجمهور يستقبل صوتا جديدا يأتي من مكبرات الصوت يتحدث عن أربعة عناصر أولها الأزمة وثانيها الديمقراطية وثالثها... الخ).

الشاعر والبحر

امتلأ الفضاء برفيف أجنحة النوارس التي جاءت تقيم أعراسها فوق رؤوسنا فور أن سمعت صفارة الوداع التي أطلقتها سفينتنا وهي تغادر هذا الميناء العربي باتجاه ميناء عربي جديد. مضت السفينة تعارك الموج، وتعبر البحر وغبشة المساء، في حين ظلت النوارس ترافقها، وفاء لهذه العلاقة التاريخية الحميمة التي تربط بين السفن والنوارس.

راقب محمود هذه النوارس وهي تقيم تجمعاتها الاحتفالية، ترقص وتتواثب وتمنح أجنحة للفراغ الذي يغلف السفينة، وقد وجد في صحبتها، مؤانسة وألفة أو هكذا بدا لي، فهو مسافر وحيد، تعرفت عليه في صالة الجمارك عندما كان يشرح للشرطي الذي أراد أن يفتش جيوبه بعد أن فتش حقيبته، أنه شاعر لايملك إلا قصائده، رأيته فوق سطح السفينة يراقب حركة الطيور، فجئت وأسندت مرفقي فوق السور بجواره، قائلا:

ـ لعلك اكتشفت زعيم هذه الطيور، وأهديته قصيدة تشيد فيها بمهاراته القيادية والسياسية.

كان قد أخبرني بأنه سافر إلى عدد مـن العواصـم العربية طلبا للرزق، وأنه أثناء سـاعات الفراغ الطويلـة، بين عمل كتابي مؤقـت وآخر أقصر عمرا، كان يشغل وقته بتأليف قصائد المديح في الملوك والرؤساء العرب، وكلما زار بلدا عربيـا أهدى قصيدة مديح إلى زعيمه، وقـدمها إلى الإذاعة بانتظار تلحينها.

ـ لاتهزأ بزعماء الطيور، فهـم أكثر براعة في تنظيم رعايـاهم، من زعماء البشر!

هاهو يؤكد علاقة الحب التي تربطه بكل من يصير زعيما، حتى لو لم يكن من البشر. مضى يتابع حركة الأجنحة في هبوطها وارتفاعها، ويحرك رأسه وعينيه معها حين تدور، وقد بدا على وجهه صدى الانفعالات التي تصاحب هـذه المراقبة. يعبس حينا ويبتسم حينـا آخر، دون أن أستطيع أن أعرف سبباً لعبوسه أو لابتسامه.

ـ تبدو مندمجا مع هذه الطيور وكأنك تعرف لغتها.

ـ ألا تحس بالأمان وأنت في صحبتها.

ضغط على كلمة «الأمان» وكأنه يقول بأن هذا هو سر الوجع.

ـ سوف تفارقنـا الطيور عما قليل، فلا يبقى بصحبة الشـاعر غير هذا البحر وهؤلاء الركاب.

أثناء الرحلة التي استغرقت أياما كان ثمة متسع من الوقت لأن أسمع منه كل هذه القصائد. اكتشفت أنه لم يترك حاكما عربيا واحدا، لم ينشئ

قصيدة في مدحه، تتحدث عن إنجازاته، وتشيد بتاريخه المجيد، وتتمنى له طول البقاء في الحكم وفي الحياة. لقد استنفد كل القوافي واستخدم كل بحور الشعر حتى يستطيع أن يفي بالتزاماته نحو هذا العدد الكبير من الملوك والرؤساء، وأبدى أسفا شديدا لأن هناك رئيسا عربيا، أطاح به عساكره، قبل أن يزور بلاده ويهدي القصيدة التي أنشأها في مدحه إلى الإذاعة. قلت لكي أواسيه.

ـ هناك دائما رئيس جديد.

ـ للأسف ان اسمه لايتطابق في الوزن مع اسم سلفه، وإلا كنت أبدلت اسما باسم وكفاني ذلك عناء تأليف قصيدة جديدة. فمشاعري نحو الاثنين واحدة.

سألته إن كان شعره الغنائي قد وصل إلى أيدى الملحنين والمطربين فذكر لي، بلهجة الزاهد المتعفف، إن مثل هذه القضايا تأخذ وقتا طويلا، وأنه يشعر بأن مهمته قد انتهت عندما كتب القصيدة وأوصلها إلى الإذاعة. قائلا بأن كتابة الأغاني هي هوايته منذ أعوام الصبا، وقد تحول في السنوات الأخيرة عن كتابة شعر الحب وتفرغ لتأليف الأناشيد السياسية دون أن تجد أغانيه القديمة ملحنا يعرف قيمتها بعد أن فسد سوق الغناء وما عاد قادرا على استيعاب مثل هذا الإنشاد الرصين.

كنت قد تركت مجالسة صحاب آخرين من رفاق الرحلة، وتفرغت لمصاحبة هذا الشاعر. فقد كان شيئا مثيرا، أن أجد مواطنا عربيا يتسع قلبه النبيل لحب كل هؤلاء الملوك والرؤساء، على اختلاف أنماطهم

وسياساتهم، وتباين أفكارهم وأساليب حكمهم، التي أوصلتهم إلى إشعال الحروب فيما بينهم.

كنا نتخذ مقعدين متجاورين على سطح السفينة، بعيدا عن صخب المقهى والقاعات الداخلية الأخرى التي تزدحم بلاعبي الورق والمتفرجين على أجهزة التلفاز والفيديو. نستنشق رائحة البحر، ونراقب حركة الموج، ونستمتع بمشاهد الغروب وقد تضاءل الظل الذي يفرشه الملوك والرؤساء فوق رؤوسنا فلا شئ حولنا سوى هذا الفراغ الأزرق الكبير الذي تصنعه زرقة البحر وهي تعانق زرقة السماء. كنت أتوقع أن يمنحه هذا السلام الذي يعبق به المكان، شيئا من طمأنينة النفس التي قضى عمره يبحث عنها. فيكشف طرفا من مشاعره الحقيقية التي تختفي خلف هذه المدائح الملكية. ورغبةً في أن أستثير هذا الجانب الذي لاتفصح عنه قصائده سألته:

ـ ألا تعرف كتابة شعر الهجاء.

قال مستنكرا.

ـ ومن تريدني أن أهجو لاسمح الله.

ـ واحداً أو اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرؤساء والملوك الذين مدحتهم فأهملوا مديحك ولم يعتنوا بتقديم جائزة لك.

التفت خلفه مذعورا، وألقى نظرة ذات الشمال، وأخرى ذات اليمين، وهمس قائلا:

ـ حتى السفينة لها آذان، فاحذر أن تقول كلاما يجلب المهالك.

ثم عادت نبرات صوته إلى طبيعتها وهو يقول:

ـ إنني لا أطلب منهم جزاء ولا شكورا.

ـ أنت بذلك تخذل أسلافك من الشعراء العرب الذين يقلبون مديحهم إلى هجاء عندما يمتنع الملك أو الأمير عن تلبية طلباتهم.

ـ ماذا أفعل إذا كان لامطلب لي.

تأسفت لخموله، وضعف همته، إذ كيف يتصدى الإنسان لمهمة كبيرة مثل هذه المهمة ويعقد لنفسه لواء الشاعر الذي يكرس شعره لتمجيد الملوك والرؤساء دون أن يكون صاحب طموح يدفعه لتحقيق الجاه والثروة، إن لم يكن الحكم والولاية كما هو شأن المتنبي. تأسفت لما وصل اليه حال الشعراء المداحين في هذا الزمان وقلت ساخرا:

ـ هل معني ذلك أن ماتقوله من مديح لاهدف منه ولا دافع له، سوى محبة هؤلاء الحكام.

قال وهو مازال يتلفت:

ـ طبعا وهل سيواتيني الشعر إن لم أكن أملك عاطفة نحوهم تلهمني الإنشاد والغناء.

لم أشأ أن أفصح له عن رأيي في شعره، ولم أقل له أن يبحث عن إلهام جديد لأن إلهاما يكون مصدره هؤلاء الحكام، سوف لن يمنحه إلا هذه القصائد الشائهة. لم أفعل ذلك، لأنني لا أريده أن ينفر مني، فأنا

وبرغم هـذا الرعب الذي أحـس به مقيما في عينيه ، وإدراكي بـأنه لم يقل شعره إلا بدافع هذا الرعب وافتقـاده الأمان ، مازلت مشوقا لأن أراه يخرج من هذه الأغلفة الـرسمية ، ويمنحني لحظة صدق واحدة خـاصة ونحن نجتمع في حضرة هذا البحر، الذي ربطته بالشعراء أعمق الوشائج ، منذ أن نسبوا أوزانهم إليـه ، واقتبسوا مـن تياراته وهـدير أمواجـه وحركـة مده وجزره بحورهـم الشعرية .

كانت الألفة التي نشأت بيني وبينه ألفة حقيقية ، جعلتني لا أرى فيه مجرد صوت ، أضمـه إلى خانة الأصوات التـي ينتمي إليها شعـره ، والتي أسمعها تأتي مـن منصات الخطابة ، وأجهزة المذياع . كـان خلف الشعر الخطابي ، إنسان بالـغ الرهافة ، يذوب مع أشعة الشمـس الذائبة في مياه البحر لحظـة الغروب ، فيـودعها وكـأنه يفـارق حبيبته ، ولـه وجه دقيـق الملامـح ، تنطبع عليـه أصغر وأدنـى الانفعالات التـي يجيش بها قلبـه ، وعندمـا أجده بجـواري يحتسي قدح الشاي وقـد استخدم يـديه الاثنتين ممسكا به ، يخشى أن يسقط منه فوق السطح ، أشعر بمدى رقته ، وأحس بأنه طفل كـان يجب أن ترافقه أمه كي تعتني بـه . وكنت أقول في نفسي ، وأنا أحاول أن أجد جانبا إيجابيا في شعره ، أن هذا الشعر يوحي بأنه رجل تحققت فيه شروط المواطـن العربي الذي ارتفع فـوق انتمائه الإقليمي ونظر الي نفسه كمـواطن ينتمـي إلى هذه الأمة ، ولكـن العرب شعـوب أيضا ، فلماذا هذا الولاء المطلق للحاكمين .

كنت قد اعتبرته «عينة» ساقهـا لي البحر، اختبر من خلالها مايحس به أولئك المواطنون البؤساء ، الذين نراهم على الشاشات الصغيرة والكبيرة ،

يخرجون مـن تحت أنقاض البيـوت التي هـدمتها فـوق رؤوسهم عسـاكر السلطان، يجددون للسلطـان البيعة ويقدمـون له عهود المحبـة والولاء.
كانت أمنيتي أن أراه قادرا على اجتراح تلك المعجزة، والمغامرة بقول تلك الكلمة التي تكشف عن حقيقة مشاعره المختبئة خلف أكداس الخوف.
ولذلك أوضحـت له كيف أننا الآن نـركب سفينة تعبر البحار المفتـوحة، اثنان من البشر ينتميان إلى ذات الأرض واللغة والـذاكرة التاريخية المثخنة بالجراح، يلتقيان ليومين أو ثلاثة أيـام ويفترقان، يتصادقان ويتصارحان لأنه لامنفعة بينهما، تقضي على عفـوية اللقاء والحديث. قلت لـه بأنني لست حسيبا أو رقيبا ينتوي محاكمة مشاعـره وانفعالاته، فأنا مثله أخفي مشاعـري الحقيقية لحظـة الخوف والمجابهة، ولا أفصـح عنها إلا عنـدما أحس بـالأمان. وقلت لـه أيضا، بـأنني وسط هـذا المدى الأزرق الذي لايحده حـد، والـذي يتيح لـلإنسـان فـرصـة الارتفاع فـوق الاعتبـارات الدنيوية الصغيرة، ويفتـح أمامه أفقا لتأمل دورة الأرض وحـركة الأفلاك ونواميس الـوجود، حيث تتساوى البدايـة بالنهاية، وتنـدمج السلالات البشرية منـذ الأزل وحتى اليـوم في كتلة هـلامية واحـدة، ويجمع خيـط الفناء أول الفراعنة بـآخرهم، أحس أنني قد تحررت مـن خوفي، وانتفت الحاجة لأن أزيف مشاعري، أو أدعي بأنني أحب هؤلاء الملوك والرؤساء لأنني في الحقيقة لا أحبهم، ولا أرى في الكوارث والنكسات التي حلت بنا، إلا دليلا على فساد أنظمتهم، فلماذا لايشاركني لحظة الصدق هذه، ويخبرني لماذا أرغم نفسـه على تـزييف مشـاعره وحفظها وتعليبهـا وبيعها إلى الإذاعـات العـربية، التـي لاتـأخـذهـا منه إلا لترمـي بها في سـلال المهملات.

انتفض من مكانه مذعورا، وكأن أجهـزة الأمن العربية، التي غافلت الملائكـة، واستـولـت على ادارة الكـون، قد أرسلتنـي منـدوبـا عنهـا، لأكشـف هـذا الشـاعـر وأخبرهـا بأسراره. وقـف وقـد ضـاقـت عينـاه الصغيرتان، ضيقـا شديـدا وغرز نظـراته في وجهـي، يبحث عـن سبيل للنفـاذ إلى حقيقة أمـري. واجهتـه بنظرة أكثـر حـدة واستفـزازا، فأخـذ مقعـده، وسار يجره وراءه ويهبـط به السـلالم حتى اختفـى عن نظـري. تركني وحيدا فـوق سطح الباخرة، وذهـب يختفي تحت أسقـف القاعات الداخلية الصاخبـة. وصرت عندما ألقاه بعد ذلك، يـزور بوجهه عني، أو يرد بـاقتضاب على تحيتي، ويمضي وهو يمسـك كأس الشاي بيـديه الاثنتين، إلى الناحية الأخرى، فأقول في نفسي متأسفا:

ـ ماذنب مواطن عربي، يأكل قلبه الرعب.

قبل أن تصل السفينة إلى ختام رحلتها، تحركـت عاصفة تقتلع أمواج البحر من جـذورها، وتدفعها لضرب السفينة بعنف وقـوة حتى تطقطق أخشابها، لاحقتـه متطوحـا استند على الأسـوار وجدران الخشـب إلى أن وصلت إليه وسألته ضارعا متوسلا:

ـ أرجـوك أيها الشـاعـر، قصيـدة مـديـح واحـدة أرجـوك، تهديها لبوسايدون رب الرياح والبحار، لعله يرأف بنا ويمنحنا الأمان.

مقابلة صحفية

نزع النظارة من فوق عينيه، فظهر الانتفاخ الذي يحيط بهما ويجعلهما تشبهان أعين الضفادع، فتح عينا وأغمض الأخرى، ورفع حاجباً وأبقى الآخر ثابتا، وحرك فمه بطريقة تشبه التثاؤب، ليسألني قائلا:

ـ ما الذي تريده بالضبط ؟

كنت مرتبكا، لا أريد شيئا سوى أن أترك هذا المكان، وأهرب من لحظة المواجهة مع هذا الرجل. فأنا مجرد محرر حديث التعيين بصحيفة «الزمان»، أعاون صحفيا أكبر مني، في إجراء مقابلات صحفية، استكمالا للملف الذي تنشره الصحيفة عن فساد الروتين الإداري.

لم أكن لأستغرب أن يرفض مقابلتي، ولكن بعد أن أذن بالمقابلة، واستمع مني إلى طبيعة الموضوع الذي ستدور حوله الأسئلة، فقد بدا غريبا أن يسألني هذا السؤال الاستنكاري. تأملته وهو يجلس خلف مكتبه الذي اكتظ بالأوراق والأضابير والسجلات وأجهزة الهاتف، ومن حوله أرفف تمتلئ بنماذج كرتونية للقرى السياحية والمشاريع الإسكانية التي تنفذها المؤسسة الاستشارية التي يديرها لحساب المجتمع، بينما

امتلأت الجدران بشهادات التقدير التي حصلت عليها المؤسسة، وصور الحفلات التي أقيمت تكريما لها، تزين بعضها تعليقات المسئولين، وكتبت تحت إحداها أبيات من الشعر بخط كبير تشيد بنجاح المؤسسة التي لاتلمس شيئا إلاّ وتحيله إلى ذهب. ووسط هذه الغابة الورقية، جلس الرجل الذي يمتلئ زهوا بإنجازاته الذهبية. تهدل لحم العنق حتى غطي ياقة القميص، وانحسر الشعر عن مقدمة الرأس، فلم يبق منه سوى دائرة صغيرة، اختلط بياضها بسوادها تحيط بصلعة حمراء تلمع تحت ضوء المصباح المعلق في سقف المكتب، ومن تحت الصلعة وجه غليظ الملامح، كثيف الحاجبين، أضفى عليه الغضب مسحة من العنف والقسوة، جعلني أشعر بالفزع وأنا أسأل نفسي إن كانت ملامحي حقا ستؤول إلى هذا المصير عندما أصل إلى سنه. أوضحت له بأقصى ما أستطيع من تهذيب، أنني أنتمي إلى صحيفة تسعي إلى معرفة الحقيقة، وتقديمها لقراء يهمهم أمر هذه المؤسسة الكبيرة التي يديرها بالنيابة عنهم.

ترك الرجل مكتبه وجاء ليقف في مواجهتي. أدركت إنه ازداد غضبا مني عندما ربطت بين القراء وبين هذا المنصب الذي جاءه بتفويض منهم. ولكنها الحقيقة حتى وإن ظن نفسه مبعوث العناية الإلهية لتحويل التراب إلى ذهب. بقيت جالسا في مقعدي أرفع إليه بصري، وأنتظر أن أسمع رده على ردي. أطلق ضحكة قصيرة هازئة قبل أن يقول:

ـ هل حقا تريدون معرفة الحقيقة، أم أنتم تريدون طمس الحقيقة

وتزييفها وتشويهها خدمة لجهات وعناصر مشبوهة، تستخدمكم، وتجعل منكم أدوات رخيصة تلعب بها.

فاجأتني لهجة الاتهام والإدانة التي يخاطبني بها. كنت قد قرأت مانشرته الصحيفة من حلقات حول هذه القضية، ولم أر سطرا واحدا يشير إليه بخير أو بسوء، فما الذي أحاله إلى كتلة أعصاب مشتعلة. جلست أنظر إليه حائرا، وقد بدا في وقفته تلك، بهامته العالية، وبنائه المتين، ووجهه الغاضب، وكأنه تمثال لإله حجري من آلهة الأولمب، أحكم سيطرته على الزمان والمكان، وادخر في جيبه رعودا وبروقا سوف يرمي بها في وجه كل من يجادله أو يستفزه. اخترت ضبط الأعصاب، مستعينا بما تعلمته في مراحل التمرين الصحفي، من أن استثارة الشخص الذي نجري معه المقابلة، ستفضي بالضرورة إلى أجوبة مثيرة وغير تقليدية. لم أكن قد استخدمت أية تقنية صحفية للوصول إلى هذه النتيجة، وطالما إنها جاءت عفوا، فلماذا لا أستفيد بها. قلت بلهجة هادئة إن مايقوله يناقض الحقيقة، وأن لصحيفتنا تاريخا طويلا، يشهد بمواقفها الوطنية وسعيها لخدمة الصالح العام، وأنني أتعهد أمامه بنشر كل كلمة يقولها.

واصل عزف نشيده الغاضب:

ـ كيف لا أغضب وأنا أرى معاول الهدم تهدد كل بناء. عن أي فساد وأي روتين تتحدثون. هناك دائما الفاشلون وأعداء النجاح في مواجهة الناجحين، أليس كذلك؟ هناك الكسالى وأعداء العمل في مواجهة العاملين. أليس كذلك؟ هناك الهاربون من أعباء الحياة في مواجهة

أولئك الذين يقبلون على حمل الأعباء ويصنعون التقدم ويخدمون الحياة، أليس كذلك؟

احتفظت بالصمت إزاء «أليس كذلك»، التي يرمي بها في وجهي منتظراً أن أقول له «نعم». فعلت ذلك استفزازا له لأنني أعرف إلى أي مدي يحب أمثاله هذه الكلمة حتى صارت ترياقا لايعيشون إلا به. واصل هديره:

ـ وأنتم للأسف الشديد، تأخذون أقوال هؤلاء الحاقدين والموتورين وتروجون لها في الصحف وتجعلون منها قضية تشغل الرأي العام. أليس هذا ماتفعلونه؟

ما أسهل استخدام هذه العبارات المحفوظة الجاهزة، التي جاء يرصها فوق بعضها البعض ويصنع منها متراسا يختفي خلفه. لعله أراد أن يستغفلني عندما اختار أن يعترض على المبدأ ويهمل التفاصيل، ولكنني أعرف جيدا أن الدخول في التفاصيل، سوف يحرمه من هذا الزهو، ويعيده إلى مواجهة الحقائق التي تدين تفكيره وسلوكه. جئت لإجراء مقابلة صحفية، فوجدت نفسي أدخل جدلا عقيما حول الصراعُ بين الفشل والنجاح. إنه يدافع عن الناجحين، وكأنه شيخهم الذي سيحمل رايتهم إلى النار. قلت أتحدى غرور الرجل:

ـ هل معنى ذلك أن نمنح الناجحين حصانة تعفيهم من الحساب والعقاب.

أطلق ضحكة أكثر صخبا، وأبلغ تعبيرا عن مشاعر الاستهزاء والسخرية:

- لاشك إنكم تحتفظون بهذه الحصانة للراقدين في توابيت الفشل والحقد والجهل والكسل العقلي، فلماذا نسلبها منهم. ولكن أخبرني من أنتم، حتى تحاسبوا الناس وتهددونهم بالعقاب، تهربون من ميادين العمل والإنتاج وتستهلكون ورقا وحبرا كان أحرى به أن يصبح كتبا وكراريس للمدارس. ألا تخجلون من أنفسكم، ومن نشر حملات التشهير التي تبدأ ولا تنتهي؟ من يقرأ صحيفتكم لايرى سوى القيم التي انهارت. الذمم التي فسدت. العفونة التي تفوح من الدواوين والدكاكين والبيوت، الضباع التي تنهش لحم الوطن. لايرى سوى السقوط والانحراف والخراب. لقد انقرض الشرفاء من الدنيا، ولم يبق غير محرر صحيفتكم، ينعق مثل غراب الشؤم فوق هذه الخرائب، وينذر الدنيا بمجئ يوم القيامة.

لا أريد صداما معه.

جئت بفكر مفتوح أبحث عن فرصة للتواصل مع الرجل، وتقريب المسافة بيني وبينه. وهاهي المسافة تزداد اتساعا، بعد أن أقفل، بكبرياء وغشامة باب الحوار.

كنت أستمع إليه دون أن أستمع إليه. فما يقوله من كلام ضد الصحافة سبق أن سمعته، ومنعته من أن يصل إلى عقلي وقلبي. كنت شاردا مع نفسي، أسألها سؤالا واحدا، هو ما الذي أفعله في هذا المكان.

فما أكثر الدواوين والرجال ممن يحتفون بي، ويحفظون لي مكانتي، ويرحبون بظهور اسمائهم على صدر صحيفتي، أدركت أنه لافائدة من مناقشة آرائه المعادية لمهنتي. فقلت أحسم الموقف.

ــ هل يمكن أن أطرح أسئلتي المحددة التي يسعدني أن أسمع إجابتك عليها؟.

ــ دعني أقول لك إنني أحب أن أعمل في صمت. وأن الصخب الذي تصنعه الصحافة سينعكس سلبا علي هذه المؤسسة. إنني لا أتعامل مع الداخل فقط، وإنما أتعامل مع الخارج أيضا، حيث لكل كلمة وقعها ونتائجها. من له خصومة معنا فليذهب بها إلى المحاكم التي يمكنها أن تجري التحقيقات وتعقد المحاكمات، أما التحقيقات التي تقومون بها أنتم، والمحاكمات التي تعقدونها، فاسمح لي بأنني لست معنيا بها.

إنه يرفض إجراء هذه المقابلة الصحفية، لأنه يعرف أنني أعرف الكثير عن هذه المؤسسة، كما أعرف الكثير عن أسلوبه الاستبدادي في الإدارة الذي لايعترف برأي يخالف رأيه، ويضيق بكل إنسان يقف في وجهه. غير جوانب أخرى أكثر خطورة، هو على يقين بأنني لن أتكلم عنها، لأنني لا أريد أن أصل بالصدام إلى حدوده القصوى، فهي تتصل بمكاتب وشركات تتغذى بأموال هذه المؤسسة وتحتكر التعامل معها، لأنه يملك حصصا وأسهما فيها، تضيف إلى أمواله مالا جديدا كل يوم. كنت فعلا أريد أن أكتب تحقيقا صحفيا عنه وأعطيه للمحرر المسئول عن الملف يعيد صياغته ويضع اسمه فوقه. يشيد بمهارات الرجل ونجاحه

في سوق المال والتجـارة و ينتقد بصراحـة أسلوبـه التقليدي التسلطـي في الإدارة ، ولكن التحقيـق سيظل ناقصا طـالما رفض الرجل الحديـث . إنه بطل القصة في النهاية ، والكتابة عنه دون أن يظهر بأفعاله وأقواله ستكون كمـن يكتـب مسرحيـة عن الملـك ميـداس دون أن يظهـر ميـداس على المسرح .

هل أعترف بهزيمتي ، وأطوي أوراقي وأنسحـب ، يبدو أنه لاخيار لي غير هـذا الخيار ، أمـام تعنـت الملك ميـداس ورغبتـه في أن يبقى مختفيـا خلف الكواليس . قلت وأنا أهم بالوقوف .

ـ إنك لاتريد أن تساعدني .

تركني أمضي إلى أن وضعت يدي على أكرة الباب ، وناداني قائلا :

ـ تعال هنا ياولد . ألم يجدوا أحدا غيرك يرسلونه لي؟ .

ـ لم يرسلني أحد . لقد اختلقت هذا التحقيق الصحفي ليكون ذريعة استخدمها في لقائك .

كنت أعرف أنه اعتاد ارتداء الأقنعـة التي لايخلعها أبدا . يعامل البشر في المؤسسة مـن خلال قنـاع السلطة ، سلطـة المدير ، ويعـامل أهلـه في البيـت من خـلال قناع سلطـة الأب والمديـر معا . فجئـت اليوم أرتـدي أقنعتي الجديدة ، لعلني أجد لغة مشتركة أخاطبه بها .

قال مستنكرا .

ـ ولماذا افتعال الذريعة وأنا لم أقفل الباب في وجهك؟ .

لقد أقفل الباب وأبقاني سجين أفكاره وآرائه كل مامضى من عمري، فلا أضع في فمي شيئا إلى بعد أن يمضغه لي هو. أكملت دراستي الجامعية في كلية الحقوق التي اختارها لي، وأردت الاشتغال بالصحافة التي اخترتها لنفسي، فأعلن حربه ضد هذه الرغبة لأنه لايريدني أن أخرج من تحت وصايته. وهيأ لي مكانا بجواره، لكي أساعده في تحصيل أمواله، لأنه لايأتمن أولئك الغرباء الذين يديرون شركاته. عافت نفسي أموال الملك ميداس، التي تأتي عن طريق آخر غير طريق العدل والقانون كما عرفتها أثناء دراسة الحقوق. فرفضته ورفضت عروضه. مزقت القماط الذي كان يلفني فيه، وخرجت إلى فضاء الدنيا أبحث عن فرصة في المجال الذي أحبه، مضت أشهر كثيرة دون أن أراه، وعندما فكرت في زيارته، اخترت أن أتوسل بالصحافة، لإجراء حوار معه، أعيد به ما انقطع من تواصل بيننا. لم أكن أعرف أن عناده، لن يتيح لي هذا الترف.

ـ اراك مازلت راكبا رأسك، عازما على مواصلة العمل في مهنة لن تجلب لك سوى الندم والمتاعب.

كدت أخاطبه مستخدما اسم الملك ميداس، قائلا له، إنني أرفض أن أتحول إلى تمثال من ذهب لمجرد لمسة من يده، لأنني أحب أن أبقى إنسانا يعيش بين البشر ولكنني بدلا من ذلك أحنيت في صمت رأسي، وفتحت الباب وخرجت، يملأني احساس بالعار والإثم، لانني وأنا اجلس أمامه، تذكرت كتابا يتحدث عن تلك الرغبة اللعينة القابعة في ظلمات العقل الباطن التي يسميها الكتاب الرغبة في قتل الأب.

ثلاث قصص قصيرة

(من زمن الحرب)

(١)

الطفل الذي أضاف غابة إلى خريطة الوطن

جلس الطفل إلى مقعده في احد الأيام التالية للعدوان الامريكي، يرسم خريطة الوطن العربي .

رسم بحرا كما كان يفعل قبل العدوان ورسم جبلا كان دائما يرسمه فوق الخريطة ورسم شجرة نخيل مثقلة بعراجين البلح ، كما تعلم أن يرسمها قبل العدوان .

ورسم شمسا وسماء ، ومسجدا له مئذنة طويلة تعانق الأفق ، بمثل ما كان يفعل قبل العدوان .

انتهى الطفل من رسم الخريطة ، ولكنه ظل يتأملها حائرا وكأن هناك شيئا ناقصا نسي أن يرسمه .

تذكر الشئ الذي نسيه .

وفي حماس شديد أمسك القلم وأضاف إلى خريطة الوطن شيئا جديدا لم يرسمه من قبل ، أضاف الطفل إلى الخريطة غابة كثيفة من الصواريخ .

(٢)

الطفل والبيت القتيل

في طريقه إلى المدرسة مر الطفل بأنقاض بيت هدمته قنابل الامريكان . .

انهارت شرفات البيت وتهدمت الواجهة وطار خشب النوافذ وزجاجها ولم يبق من البيت إلا أعمدة وأسقف وبقايا جدران وأكوام كثيرة من الركام والانقاض .

رآه اليوم مظلما خاليا من الحياة وحركة البشر وضجيجهم غارقا في الصمت والكآبة والخراب كجثة إنسان قتيل .

لم يكن يعرف إن كان أحد من أهل البيت قد استشهد ، ولم يكن يعرف احدا من الأطفال الذين يسكنون هذا البيت . . ولكن يعرف أنه كان بيتا عامرا بالحياة ، ولابد أنه كان يضم أسرة كأسرته ، أم وأب وابناء وبنات .

نساء ورجـال وأطفال وشيوخ ، جديـرون بأن يملأوا بالحيـاة بيتا كبيرا شاسعا كهذا البيت .

إن شيئا مـريعا قد حـدث تلك الليلـة ، أحال البيت إلى هـذه الخرابة الموحشة الكئيبة ، شيئا مخيفا مرعبا قتل الحياة في هذا البيت .

إنه يعرف الآن إن الذين فعلوا ذلك هم أناس يكرهون الحياة ، يكرهون البيوت العامرة المضيئة يكرهون الآباء والامهات ويكرهون الأطفال .

دمعت عيناه . .

وقرر بينه وبين نفسه انه عندما يكبر سوف يـأخذ طائرة مليئة بالقنابل ويذهب ليرمي بها فوق بيوت أولئك الذيـن هدموا هذا البيت وطردوا منه الحياة .

(٣)

ريحان . . قاتل الأطفال

غابـت «رشا» عـن الحضور إلى المدرسة في اليـوم التالي لأيـام العدوان الامريكي .

* كتبت هـذه القصص عشية الهجوم الأمـريكى الظالم على مـدينتى طرابلس وبنغـازى عام ١٩٨٦ ونشرت بمجلة الفصول الأربعة .

انتظرت حنـان أن ترى زميلتها تـأتي وتجلس في المقعـد المجاور لها كما تعودت أن تفعل كـل يوم . لقد استعارت مـن «رشا» كراسة الـرسم لكي تأخذها إلى امها ووالدها وتريها كيف تجيد «رشا» رسم الزهور والفراشات وأعشاش الطيور، وقد أعادتها اليوم إليها ، فما بالها لا تأتي!

وعندما تأخـرت طويلا سألت عنها مدرسـة الفصل التي اخبرتها بأن «رشا» قد ذهبت إلى مكان بعيد . ذهبت ولن تعود . سألت حنان المدرسة عن المكان الذي ذهبت إليه رشا ، ألحت في السؤال حتى عرفت أن «رشا» كانـت هي ايضا مـن ضحايا قنـابل الطـائرات التي أرسلها رجـل اسمه «ريجان» تهاجم بيوت الليبيين .

مـاتت «رشـا» إذن ، ومـاتت بمـوتها الزهـور والفـراشات وأعشـاش الطيور.

حزينة جلست حنان تنظر إلى المقعد الفارغ بجوارها ودفتر الرسم بين يديها ، وتنهمر في البكـاء ، تصورت «ريجان» كائنا من كـائنات الخرابات يجلـس في ظلام الخرابـة ومـن حولـه أعـداد لا حصر لها مـن خفافيـش الظلام ، وأمامه صخرة يشحذ عليهـا سكينة كبيرة اعدها لقتل الأطفال ، وعندمـا يأتي الليـل يرتـدي عباءة سـوداء وينشر ذراعيه فتصبـح العباءة كأجنحـة خفاش كبير يطير بها في الهواء ويـأتي إلى المدن متخفيا بـالظلام ليهاجـم الأطفال الذيـن ينامـون في أسرتهم ، يستل من عبـاءته السكين ويقوم بقتلهم .

عادت حنان إلى البيت وهي لاتزال تبكي . ذهبت مسرعة إلى غرفتها .

أقفلت على نفسها الباب . مسحت دموعها وأخرجت كراسة الرسم التي استعارتها مـن رشا ، وأخذت القلم تكتـب رسالة إلى الله تخبره فيهـا بأن ريجان هو الذي قتل صديقتها رشا صاحبـة هذه الكراسة التي تجيد رسم الزهور والفراشات وأعشاش الطيور وتسـأله باسم كل الأطفال أن يحمي أطفال العالم من ريجان قاتل الأطفال .

إشارة ضوئية

(معالجة أدبية لقصة شريط روائي قصير)

صباح يوم ربيعي، بالغ الصحو والاعتدال، سماء زرقاء، وأفق شديد الصفاء، وشمس معلقة على حافة الكون، تنشر غلالة ضوئها فوق حقول تمتد، فسيحة، مزهرة، خضراء، ترتفع في أجزاء منها وهاد شديدة الاخضرار، وطريق أسفلتي معبد، يلمع كالزجاج تحت أشعة الشمس.

تنبثق من أعلى إحدى الهضاب التي يعبرها الطريق الأسفلتي، سيارة صغيرة بيضاء، يقودها رجل في مقتبل العمر، حليق الوجه، وسيم الملامح، يرتدي قميصا قطنيا أبيض يلتصق بجسده الصغير اليافع، له شعر غزير ناعم، يتماوج مع تدافع الأنسام عبر نوافذ السيارة المفتوحة. موسيقى ذات إيقاع مرح، تتصاعد من مذياع السيارة. يتفاعل معها السائق، ويهز رأسه طربا، ويصدر صفيرا يتفق مع أنغام وإيقاع الموسيقى. كون يعبق بالسلام والهدوء والسكينة ومشاهد شاعرية لنباتات وأعشاب الحقول وهي تتهادى وتميس مع النسيم وكأنها ترقص هي الأخرى على إيقاع الموسيقى. تمضي السيارة في حركة انسيابية، عبر الطريق الذي يرتفع وينخفض مع ارتفاع الارض وانخفاضها، وتدور مع

الطريق الذي يتعرج ويلتوي كأنـه بساط منسوج من مادة مشعة سوداء، تحف به خضرة الأرض وبهاء الـربيع. دميـة لامرأة جميلة تـرتدي مـلابس راقصة أسبانيـة، معلقة أمام السائق، تتهادى وتهتز مـع صوت الموسيقى وتضيف لمسة جمالية إلى بهاء المشهد. تنحدر السيارة عبر إحدى الهضاب وتعبر بمحاذاة بحيرة تتوسـط الحقول، تطوف فوقهـا طيور كثيرة بيضاء، ثم تمضي عبر ارض منبسطة وطريق صار الآن مستقيما بلا تعرجات.

بينما يشرد السـائق مع الموسيقـى بوجهه الباسم، كـأن المشهد أيقظ في نفسه جميل الـذكريات، يظهر في البعيد طـريق آخر يتقاطع مـع الطريق الذي تعبره السيارة، وفي تقاطع الطريقين، تنتصب إشارة المرور الضوئية التي تصدر ضـوءا أخضر. ما أن تقترب منها السيارة حتـى يتبدل الضوء ويصير أصفر، فلا يبقي غير لحظـة قصيرة ويتحول إلى ضوء أحمر فور أن تصل السيارة إلى تقاطع الطرق، يدوس السائق على فرامل السيارة، التي تصدر صـوتا عـاليا مـوحشا يمـزق السكون والهدوء، ثـم تتوقـف تماما استجابة لإشـارة الضوء الحمـراء المنصوبـة وسط هـذه الأرض الخلاء، حيث لا اثـر لأية سيـارات أخرى تمرق من هنـاك غير هذه السيـارة التي وقفت الآن وسـط العدم والخلاء. يمضي الـوقت، وقـد سكن كـل شئ داخل السيارة، تـوقفت الدمية عن حـركتها الراقصة، وتـوقفت الأنسام التي تجعـل شعر السـائق يتماوج، كما اختفت الابتسـامة مـن فوق وجـه السائق الذي صار ينظر إلى ساعته في قلق.

الإشـارة الحمراء لاتتغير، والـوقـت يمضي دون ان يحدث شئ وسـط

ذلك الخلاء، والموسيقى تتحول إلى موسيقى اكثر حزنا وشجنا، والجو الخارجي يفقد سطوعه وبهجته المضيئة، وكأن الكون دخل كبسولة زمن رمادي. وجه السائق يفقد وسامته وشبابه، تظهر عليه علامات الشيخوخة والهرم. السيارة ايضا تفقد بياضها اللامع، ويتراكم فوقها الغبار والصدأ. الإشارة الحمراء مازالت حمراء، والسيارة تتحول إلى كتلة سوداء من الحديد الخردة، والسائق ايضا تدركه هذه التحولات الغريبة حتي يصير هيكلا عظميا. الموسيقى تصبح مارشا جنائزيا، وفي مواجهة الهيكل العظمي للسائق، وكومة الحديد الصدئ لبقايا السيارة، تضئ إشارة المرور الضوئية، نورها الأخضر.



تأشيرة دخول إلى عالم برئ

الامتحان

الدخـول إلى عالم الأطفـال امتحان لا ينجح فيـه كل النـاس ، وحتي تستطيـع أن تحصل على تـأشيرة دخـول إلى عالمهـم ، فـإن أوراقا لابـد أن تقدمها ، لابد أن تفتش في خزائن نفسك عما تبقى فيها من صدق وبراءة تستطيع بهما أن تحصل على الموافقة!!

إنني شخصيا كلما أردت أن أرتاح قليلا وأبحـث عن سعادة لايقدمها النادي أو الشاطئ أو المقهى أو الكتاب ، فإنني أذهب إليهم ، أسأل عن تـأشيرة تسمـح لي بالمرور إلى مـدينتهـم وأعيـش لحظـات مع صـدقهـم وبراءتهم .

وهناك فإن عالما آخر ينتظرك ، عـالما أبهى وأجمل وأكثر صدقا وشفافيّة وحبا . . لا وجـود هناك لأمـراض القلق ولحظـات اليأس وهموم المعيشـة والرزق ، ومشاكل الدنيا والعمل ، وأخبار السياسة وصداعها . لن تمضغ سيرة الآخرين كما في مجالس الكبار، ولن يكون هناك حديث عن مشاكل الحياة المعقدة كما في الكتـب ، ولن يكون هناك نقـاش لأكداس التخلف

التي تملأ المجتمع وأمراض العصر والكوارث التي تملأ العالم كما في الصحف والإذاعات وأحاديث المجتمع. إن عالما آخر يفتح أمامك الآن ذراعيه، عالما أسطوريا يذكرك بمدينة الحلم وطائر الأسطورة وسندباد البحر، حيث تسافر ما طاب لك السفر فوق بساط الريح، وتدخل قصر الأميرة النائمة، وتعقد صداقة حميمة مع (سندريلا) وتلتقي عندها بالجنية الطيبة، وترتدي إن شئت أجنحة (كاسبر) وتزور جزيرة روبنسون كروزو. سيكون حديثهم معك عن الأساطير والحكايات والخيال، وستدخل معهم اللعبة وتنشئ معهم مدينة تصبح فيها الأرانب أمراء وأميرات، والعصافير فلاسفة، والثعالب رجال سياسة وحكمة ودهاء. ستجد الريح تلقي خطابا، والشجرة صارت مطربة، والزهور والورود والأعشاب تعقد مهرجانا للرقص والموسيقى.

وأنت في حضورهم فإن عالما قديما مليئا بالأمراض ينتهي ويتلاشى، وعالما جديدا نقيا يبدأ الآن!

لقد مللت ما تمتلئ به الدنيا من أكداس الكذب والنفاق والمجاملات، مللت الضحك الكاذب، والغضب الكاذب، والحماس الكاذب، والحزن الكاذب، وهأنت هنا تجد الضحك نقيّا كالمطر، والكلام صادقا شفافا بريئا كأنّه لغة الملائكة، وستجد العدوى قد انتقلت إليك. وأنك هنا بعكس ما كنت في عالم الكبار.. تضحك بصدق وتحب بصدق وتتكلم بصدق.. وستكتشف كم هو جميل هذا العالم! ولكن قبل أن تذهب، فإن عليك أن تعلم أن الدخول إلى عالمهم امتحان صعب، إذا فشلت فيه فإن هناك خطأ ما، خطأ ليس هينا في

نفسك ، خطأ قد يفسد كل حياتك ، وأن عليك بسرعة أن تبحث عنه وأن تهتدي إلى حل له ، وإلا فإنك خاسر إلى الأبد ! !

الأصدقاء

رأى الطفل البحر لأول مرّة . .

راعه أن يكون أزرق اللون كبيرا منتشرا في كل مكان ، شاسعا بحد الأفق . . بدأ شيئا فشيئا يتعرّف إليه ، ويقترب بحذر منه ، ثم جاءت أرانب موج البحر تركض نحوه ، ففرح الطفل ، وقرر على الفور أن البحر صديقه !

شاهد من فوق سطح البيت النجوم ، راعه أنها كثيرة . . كثيرة ، وحاول وقد تعلم حديثا كيف يعد الأشياء ، أن يعدها ، فشل ، لكنّه رآها جميلة تضيء سواد الدنيا . . فقرر من فوره أن كل هذه الأنجم أصدقاء له !

رأى الشمس تشرق من خلف الأفق ، كرة تتوهج وتضئ ، تمنى لو يملكها ، أو أن أحدا يذهب الآن ويحضرها إليه كي يلعب بها ، قرر أنه قد أحب الشمس ، وأنّه عندما يكبر سوف يسافر لإحضارها ! !

المـــرآة

وقف الطفل أمام المرآة .

رأى ولدا يشبهه يحمل كرة بين يديه .

اقترب الطفل من الطفل ، ابتسم له فابتسم له الطفل الآخر.

رآه قريبا منه ، ويلبس مثل ثيابه ، في يده كرة مثل كرته ، فأحب الطفل ، وأراده أن يصبح منذ اليوم صديقه !

تقدّم منه يسأله في حب أن يلعب معه !

الطفل الآخر يتقدّم مبتسما ويرحب بالفكرة !

جاء يمد إليه يدا ، يأخذه كي يلعب في الساحة ، اصطدمت يده بجدار المرآة .

اغتاظ الطفل .

ذهب يبحث عن حجر علّ جدار المرآة يتهدم كي يأتيه الطفل الآخر.

تحطمت المرآة . .

لكن الطفل الآخر لا يظهر. .

ذهب يبحث عنه ، يسأل في كل مكان عن طفل آخر يشبهه ، يلبس مثل ثيابه ، ولديه كرة مثله ، أين يمكن أن يلقاه؟

لكن أحدا لا يفهم . . والطفل يعيش على أمل أنّه في يوم ما سوف يلاقيه !

الكتاب

أخذ الطفل كتابا ، جلس وحيدا يكتشف السر ! !

كان كتابا يشبه صندوق الألعاب، بلا ألعاب، علّه يتحدث عن تربية الأطفال، أو يتحدث عن علم نمو الإنسان، لكن الطفل وقف أمامه مندهشا . . .

ماذا فيه لينكب عليه أبوه طوال اليوم، ماذا في هذه الصفحات لتكون مجالا يقضي فيه أخوه الأكبر سهرته فلا يلعب أو يمضي للسوق أو الشارع .

لم يعرف حلاً للغز . .

فقرر أن يبدأ فورا في أكل صفحاته . . لعلّه يكتشف السر!!

المطـــــر

هطل المطر غزيرا وأفسد عليه اللعب!

جاء الطفل إلى أبيه محتجاً، يسأله أن يوقف من فوره هذا المطر، كي يكمل ما بدأ من لعب . . لكن أباه نظر إليه حائرا . . لم يقدر أن يفعل شيئا .

فبكى الطفل . . وأدرك بينه وبين نفسه أن أباه لا يعرف كيف يدير الكون!!

الدميـــــة

ما أعجب هذه الصغيرة مع دميتها!

ما أعجب هذه العلاقة التي تنشأ بينهما!

نحن نرى الدمية، ساكتة لا تتكلم، لا تضحك ولا تصرخ، لاتستيقظ ولا تنام، لا تأكل ولا تشرب، لا تسمع ولا ترى، ولا تدرك ولا تتنفس، ولكن انظر إلى تلك الصغيرة كيف ترى دميتها، كيف تعاملها، كيف تنشئ تلك العلاقة الحميمة معها. انظر إليها وهي تسألها أن تشرب أو تأكل، وهي تسألها أن تستيقظ، أو تدعوها بعد اللعب إلى أن تنام لأنها تعبت كثيرا هذا اليوم.

إن أعظم ما في عالم الأطفال هو هذه القدرة على إنشاء علاقة مع الأشياء، مع الجماد والنبات والحيوان، هذه القدرة التي كلما كبرنا صارت تتضاءل وتتضاءل حتى تختفي من نفوسنا!

اللعب

دعاني طفل كي ألعب معه في الشارع.

كان قد اكتشف لدهشته الكبيرة أن من يلعب معهم في تلك الساحة كلهم صغار في السن، واندهش لأنّه لا يلقي رجلا يلعب أو سيدة.. لا يجد كبارا مثل أبيه أو أمّه يبنون قصورا من طين، ويقيمون المدن الوهميّة..

فجاء من فوره يجري ودعاني أن ألعب معه في الشارع.

لم أقدر..

غمر وجهه في الحال تعبير يمتلئ أسى.

كأنه أدرك في تلك اللحظة أن أحدا ما يمنعني قسرا من ذلك!!

اكتشـــاف

اكتشفــت يومـا كيف أن الأطفـال يعرفـون هـم أيضـا كيف يكيـدون للكبار.

فقد قلت لابني يوما أسأله:

ـ عم تتحدث أنت وصديقك؟!

قال بلهجة من سجل نصرا:

ـ (هذه أشياء لايعرفها إلا من كان في سنّي أو سنّه)!

أدركت لحظتها كيف أن الـولد يرد لي الكيل عندما جاء يـوما يسألني عن موضـوع نقاش بيني وبين صديق، إذ قلت (اذهـب والعب.. هذا حديث لا يعرفه من كان في سنك)!

الكلمـــة

تجمعت العائلة في بهو البيت تحتفل بمناسبة ما..

جاء الطفل سعيدا يشارك أهله فرحتهم ويقول ـ (كلمة)!

فرآها تحدث تأثيرا لم يخطر أبدا على باله!

العائلة فجأة يغمرها ذعر لم يدر لـه سببا، بعض رجال العائلة يفرّون مـن الباب، والبعـض الآخر صـار يغطي وجهـه بيديـه خجلا، وتعـم الفوضـى جو البيت ويضيع الحفـل، وفي غضب جاءه أكثر مـن صوت يمنعه أن يفتح فمه بكلام من هـذا النوع، أو ينطق هذه الكلمة في مرّات أخرى . . !

ظن الطفل أن الكلمة سحر أو أنها جبل أو أن لها مفعولا مثل الحرب أو الموت أو الشيطـان أو الأشياء المرعبـة الأخـرى ممـا يسمعه في قصـص جدّته!

وقرر بينـه وبين نفسه أنـه كلما أراد أن يمنع الشمـس من الشروق، أو يجعل المدينة أو المدرسة تختفي من الـدنيا، أو يمسخ خصما من خصومه في اللعب . . هو أن يلقي في وجهه بهذه الكلمة!!

الأطفـــــال

ـ ١ ـ

استأذن الطفـل الذي ولد لتـوّه في أن يغادر مستشفى الـولادة للحظة صغيرة، يطمئـن فيها على سير الأمـور في وكالتـه التجاريـة ثم يعـود إلى سرير الولادة.

وصل الطفل الـذي ولد منذ خمس دقائق إلى مكان الوكـالة. اكتشف لدهشته الشديدة أن الوكالـة قد اختفت فجأة من مكانها، ولم يجد لها أثرا على الإطلاق، أحس بـالأمر كأنّه طعنة خنجر، هـم بأن يعوي أو يصرخ لكنّـه خوفـا من شماتـة الأعداء لم يقـل شيئاً، عـاد إلى مستشفى الـولادة مسرعا، اندس في لفائفـه وطفق من فوره يبكي، كان يعتقـد أن صاحب الشركة اليـابانيـة الذي منحـه – من قبل أن يـولد – تـوكيلا لبضـائعه في ليبيا.. قد غشّه وضحك عليه!.

ـ ٢ ـ

استأذن الطفل الذي ولد لتوّه ممـرّضة المستشفى، وطلب أن تسمح له باستعمال الهاتـف، أخرج من لفـائفه مفكرة، وأدار رقما، وبقـي للحظة

ينتظر الرد ، جاء الرد فحدد موعـدا مع المسؤولين في الإذاعة ، وذهب بعد ذلـك بقماطـه إلى الإذاعـة المرئيّـة فعينّـوه على الفـور كـاتبـا للتعليقـات والاحـاديث ، ومقـدمـا لبرامج الفكـر والأدب ، وعهـدوا إليـه باختيـار الأشرطة التي تقـدّم للمشاهدين أثناء السهرة ، وفـوضوه في شراء البرامج التي تأتي من بيروت حسب اختياره وعلمه وذوقه وثقافته .

ـ ٣ ـ

رأى الطفـل الذي ولـد منـذ لحظات قصيرة الممـرّضـة تختفي خلـف الباب ، فانتهـز فرصة غيابها وأخرج مـن لفائفه علبة سجـائر وأوقد عود ثقاب وأشعل لفافـة تبغ وبدأ يدخن ، دخلت الممرّضـة وفاجأت الطفل مـع السيجارة في حـالة تلبـس ، غضبت لأنـه خالـف أوامر المستشفـى وهدّدته بالطرد حالا إن لم يمتنع عـن التدخين ، ضحك الطفل وخاطبها بلهجـة ساخـرة (وماذا تسمين مغـازلاتك مـع الممرّضين) جمدت رعبـا ، خافت الممرّضة أن يوشي بها إلى مـدير المستشفى ، وفي محاولة لكسب ودّه قامـت على الفور وأحضرت للطفـل الذي ولـد منذ لحظـات قدحـا من القهوة لتزيد من متعته في التدخين ! .

ـ ٤ ـ

استـأذن الطفل الـذي ولد لتـوّه أمّـه ، واكترى سيارة أجـرة من أمـام مستشفـى الجلاء وطلب أن تقلّـه إلى مكـاتـب (الفجر الجديـد) . أدرك السائق من لهجة الـزبون أنّه قادم جديد إلى البـلاد فطلب خمسين دينارا ، نفحه النقـود وصعد عدوا إلى مكـاتب الصحيفة ، حـرّر إعلانا بتعـديل

عمره قال فيه أنه يبلغ الآن ثلاثين عاما وليس خمس دقائق كما ورد خطأ في سجلات مستشفى الجلاء، وذهب من فوره وقدم طلبا بمنحه تأشيرة خروج لقضاء إجازة عيد الفطر بجزيرة مالطا، وعاد بعد ذلك إلى المستشفى واندس في صمت بين لفائفه ينتظر بفارغ الصبر أن يأتي العيد!

ـ ٥ ـ

استأذنت الطفلة التي ولدت لتوّها في الخروج من المستشفى لحظة قصيرة لترى المدينة، سمع بالخبر أفراد قبيلتها في ضاحية بعيدة فاكتروا عشر شاحنات وجاءوا بعصيهم وفؤوسهم ومناجلهم يرددون جميعهم أغنية فهد بلان عن العار والثأر، ويعلنون على أهل المدينة الحرب، فقد أغضبهم أن تخرج طفلتهم من المستشفى فور ولادتها دون أن ترتدي ـ الفرّاشية ـ.

ـ ٦ ـ

استاء الطفل الذي ولد لتوّه من معاملة الممرّضة فانتهز فرصة غيابها لحظة قصيرة، وانسلّ يعدو من المستشفى وعبر الشارع إلى الناحية الأخرى حيث فندق البحر الأبيض، ادعى الطفل الذي ولد لتوّه أنه مفكر عربي كبير كان يعيش في أوروبا، حجز له موظف الاستقبال غرفة بالفندق وقيد اسمه في قائمة ضيوف الحكومة!

ـ ٧ ـ

خرج الطفل الذي ولد لتوّه من مستشفي الولادة، دون أن يستأذن أحدا، وجلس إلى أقرب مقهى صادفه في الطريق، ورأى بجواره جماعة

تتحدّث في السياسة، فدس رأسه معهم، وبدأ من فوره يشرح وجهة نظره في الأوضاع السياسية بالمنطقة .

-٨-

سأل الطفل الذي ولد لتوّه أمّه، إن كان له قريب في المصرف قالت لا، بكى الطفل فقد ضاع القرض، سأل إن كان له قريب في البلديّة قالت لا، بكى الطفل فقد ضاعت الأرض، سأل إن كان له قريب في لجان المساكن الحكومية، قالت لا، بكى الطفل فقد ضاع البيت، سأل إن كان له أقارب على الإطلاق، قالت إن لك خالا يعمل مديرا لإحدى المؤسسات الحكوميّة، شرع الطفل يضحك على الفور، وانسل من لفائفه، وذهب يعدو عاريا حتى وصل إلى خاله، رأى الخال أن في الطفل شبها من أخته العزيزة، فعينّه في التو واللحظة نائبا له، وأوكل إليه التوقيع باسمه في العقود والصفقات والمراسلات وصكوك البيع والشراء والاعتمادات المصرفيّة .

-٩-

نسي الطفل الذي ولد حديثا أن يحضر معه شهادة الدكتوراه التي حصل عليها من أمريكا قبل أن يولد! .

بكى الطفل لحظة الولادة وهو يتذكر أنّه لن يستطيع العودة الي بطن أمّه لإحضار الشهادة، وأن كل التعب الذي قضاه في إعداد الرسالة والسنين التي قضّاها جريا وراء الشهادة، كل ذلك ذهب الآن أدراج الرياح!

وعندما رأى في عنبر المواليـد الجدد أن جميع المواليد قد جـاءوا يحملون في أيديهم شهادات في الطب والفلسفة وأصول التدريس والهندسة ، وأنّه الوحيد الذي كان عبيطا ونسي الشهادة في بطن أمّه ، اعتصر قلبه الحزن ، ورأى المستقبل يقف أمـامه ذئبا يفتح فما بأنياب كـأنها المسامير الصدئة ، وملأ الخوف صدره ، إذ كيف سيواجه المستقبـل الذئب بلا شهادة تدافع عنه ! !

ـ ١٠ ـ

دس الأطفال في عنبر المواليد الجدد رؤوسهم في بعضها البعض كأنهم يتدبّرون أمرا خطيرا ، ثم قرروا بالإجماع إقـامة حفل لعيد ميلادهم ، ذهب الطفل الذي يكبرهـم سنّا بخمس دقائق فاستـأجر فرقة تعـزف موسيقى الجاز ، وتفرغ الباقـون لإعداد العنبر ليكون مكانـا مناسبا لإقامـة الحفل ، فأوسعوا بين الأسرة مكانـا للفرقة ، ومساحة أخرى خصصـوها للرقص ، جـاءت الفـرقة وبـدأت العـزف ، في حين ذهـب كل طفـل إلى إحـدى زميلات العنبر ينحني في أدب شديـد أمامها ويدعوها إلى الـرقص بلباقة ورقة قائلا بلغـة فرنسيّة أنيقة تعلّمهـا للاستعمال في مثل هذه المنـاسبات «دانسيـه أفيـك موا»؟ فتستجيـب لـه في خفـر وحياء ، وابتـدأ الحفـل ، وانهمك الجميـع في الرقص وارتفعت حنـاجرهم الصغيرة بأغنيـة جماعيّة عن عيد الميلاد .

كـانت تعليمات المستشفـى بمنع الـرقص والموسيقـى والغناء داخـل المستشفى تعليمات محددة وصارمة لا تقبـل المراجعة أو النقاش ، فنشأت أزمة كبيرة داخل مستشفى «الجلاء» للولادة ، بين المواليد الجدد والممرّضين

القائمين على تنفيذ هذه التعليمات، وكان رأي المواليد الجدد أن هذا حق لا يجب أن يحرمهم منه أحد، وإذا كان الناس يحتفلون بعيد ميلادهم وهم في الستين أو السبعين من العمر، فكيف يحرم من هذا الحق من أراد أن يحتفل بأول أيّامه في الحياة، وكان رأي الممرضين أن مجيء الإنسان إلى الحياة حدث لا يستحق كل هذه الدوشة ومناسبة ليست جديرة بأي احتفال!.

ولم يذعن الأطفال.. فقد خرجوا على الفور من عنبر المواليد الجدد وذهبوا إلى المحكمة يرفعون قضيّة ضد المستشفى، ويطالبون بحقهم في الرقص والموسيقى والغناء!

- ١١ -

أوقف شرطي المرور سيارة كانت تخترق الشارع بسرعة جنونيّة، لم تقف السيارة، فاستنفر عددا من زملائه، وذهبوا جميعا في سياراتهم ودرّاجاتهم الناريّة يطاردون هذا السائق الذي جنّ فمضى يخترق في سرعة جهنميّة شوارع المدينة، ويدخل في طرق ممنوعة، ويركب حينا فوق الأرصفة يهزأ بالموت ويضرب عرض الحائط بالقانون، ولايقيم اعتبارا لشيخ أو امرأة أو طفل ممن يعبرون الطريق، تمكنت شرطة المرور في النهاية من إيقافه، كانوا حذرين فتقدموا نحو السيارة ببطء شديد، خوفا من أن يكون هذا السائق الذي يركبه ماردًا من الجن يحمل سلاحا قد يقتلهم به. كان أكبرهم رتبة يسير في المقدّمة، فوجئ وهو يصل إلى السائق أنّه لم يكن سوى طفل في سن الرضاعة لم يمض على مولده سوى أيام قليلة. ظن أن في الأمر مكيدة، سأل عن الأوراق ورخصة القيادة، لم يكن طامعا بأيّة

إجابة إلا أن الطفل نحى جانبا «البزازة» التي كانت في فمه وقال للشرطي إن السيّارة ملكه وان هذه أوراقها وهذه أيضا رخصة القيادة، وقف الشرطي وزملاؤه مبهورين لا يعرفون للأمر تفسيرا، ويتبادلون النظرات في خوف وحيرة، وأعادوا إليه الأوراق وتركوه يمضي دون إبطاء، لأن في الأمر شيئا فوق المنطق والعقل والقانون!

ـ ١٢ ـ

أحس الطفل الذي ولد حديثا أن له موهبة في الشعر، وأنّه قد هبط من بطن أمّه شاعرا. ترك زجاجة الرضاعة جانبا واستعار من الممرّضة قلما وورقة، وكتب في سرعة عجيبة قصيدة تقليديّة التزم فيها الوزن والقافية واستعمل ألفاظا قديمة مهجورة كي يرضي أذواق نقاد الأدب والشعر في ليبيا، وقرّر ــ بعد أن فرغ من كتابتها ـ تلاوة القصيدة علي زملائه في عنبر المواليد الجدد ومن كان معهم من ضيوف وممرّضين وأطبّاء، لم يكن المستشفى بيئة صالحة لقراءة الشعر، فتسلل هاربا من المستشفى وذهب باحثا عن قاعة أو منتدى يقرأ فيه للناس قصيدته، تأسف عندما لم يجد في مدينة طرابلس شيئا من هذا القبيل، وهم بالعودة إلى سريره في عنبر المواليد الجدد وتمزيق القصيدة وهجرة قول الشعر والانكباب على الرضاعة كما يفعل غيره من الأطفال، إلا أن خاطرا جاء يلح عليه أن يذهب إلى الإذاعة ويجرّب حظه هناك. ذهب إلى الإذاعة فوجد ترحيبا كبيرا به وفهما عميقا لموهبته وملكاته حيث اعتمدوه على الفور مؤلفا وحيدا لكل كلمات الأغاني في الإذاعة، وكان كلما كتب أسطرا ـ في لحظات استراحته من الرّضاعة ــ يرمي بها اليهم فيأخذونها ويضعون

لها الموسيقى، ويأتون بمطرب كبير يغنّيهـا، ويذيعونها على الناس صباح مساء!

-١٣-

استاء الطفل الذي ولد حديثا عندمـا علـم أن أمّه امرأة أميّة لم تذهب في حياتها إلى المدرسـة ولا تعرف قراءة ولا كتـابة، وتأسّـف في نفسه كثيرا لأنّه لن يجد على يديها تربية تليق بأمثـاله من أبناء الجيل الجديد، غمرت قلبه الصغير سحب كثيفـة من القلق والحيرة، ولم يجد إلا مولـودة جديدة صادف أنها تنام على السرّيـر المحاذي له، فأسرّ لها بهمومه وحـدثّها عن خوفه من المستقبل، وما أن سمعت الصغيرة هذا الكلام حتى انهمرت في بكاء مرير وقالت والدموع تبلل وجهها كلّه، إنها أسوأ حظا منه، وسردت له قصّة والدها الذي يرى أن رسـالته في الحياة هي سجن النساء، فحكم بالسجـن على أمها كما سجـن كل أخواتها الأكبر سنّـا منها، ولـن يكون مآلها إلا السجن على يديه، وارتداء لباس كريه اسمه «الفراشيّة»!

تأثـر الطفل لحالها وتمنّـى لو كان مـاردا كبيرا يستطيع أن يـذهـب الآن ويقتصّ من هذا الأب الظالم، لكنّه لم يجد مـا يحتج به على مساوئ الدنيا سوى البكاء مثلها، فطفق يبكي . . ويبكي . . ويبكي!

وامتلأ عنبر المواليد الجدد بالبكاء!!

٣ حكايات

ـ ١ ـ

سـمير

علاقة عمـرها الآن أكثر من ثلاثين عامـا جمعتني بسمير. وعلى مدى هذه الاعوام لا أذكـر انني تبادلت معـه حديثا يتجاوز كلمـة واحدة هي «أهلاً»، يبادرني بها، أو أبـادره بها. ساعة أن يراني أو أراه ونحـن نلتقي صدفـة أثناء جولاتنا بمـركز المدينة. لم أعـد اذكر متى وكيف التقيـت به لاول مرة، وكيـف عرفـت اثناء ذلـك أن اسمه سمير، وعـرف هو أيضـاً اسمي، فصرنا نتبادل التحية عندما نلتقي دون ان تمتد المعرفة إلى اكثر من ذلك.

وصار وجهه مألوفا على مـر الأيام والأعوام، أحييه دون كلفة، وأنطق اسمه، دون ألقـاب، وأرى أن الملامح الدقيقـة المرهفة التي تمنـح وجهه مسحة طفوليـة، تليق باسمه الـذي كان اسم مجلة شهيرة لـلأطفال، ثم ارى هذه الملامح تتبـدل بفعل الزمن. تفقد طابعهـا الطفولي، وتكتسب خشونة تتناقض مع رهافة الاسم وطفوليته. واغيب عن طرابلس عاما أو

عامين، وألقاه بعد الغياب، واحس ان شكله ابتعد كثيرا عن اسمه الذي لم يعد يليق بـه، دون ان يتبدل سلوكي معه، فابـادره بالتحية أو أرد على تحيته بانفعال وحماس قائلا:

ـ أهلا سمير

لعـل الفضـول استبد بي في بعـض اللحظـات لأن اقترب مـن سمير اقترابا اكثر إنسـانية، فأعرف مـاذا يعمل وكيف يعيش ومـا الذي يشغله من هموم وقضايا وما الذي طرأ على حياته من تغيير منذ أن ألتقيت به أول مرة، فلاشك انه امر غريب ان تبقـى علاقتي بهذا الرجل الذي التقي به منذ اكثر من ثلاثة عقود واقفـة، متجمدة، عند كلمة واحدة هي «أهلاً» وأن تبقى معرفتـي به خلال كل هـذه المدة لا تتجاوز اسمه الاول سمير. ولكـن مثل هـذه اللحظـات تأتي ثـم تمضي، يتقـد خـلالها الفضول ثـم ينطفيء، فأكتفي من عـلاقتي بسمير بهذه «الاهلا» التي نتراشق بها عبر اعوام العمر المنصرمة. وكان خجلي عظيما عندما مر سمير بجواري ورمى نحوي «اهلا» تلك فـأعدتها إليه على عجل وانا أتناول صحيفـة من بائع الصحف:

ـ أهلا سمير.

وإذا بالبائع ينبهني قائلا:

ـ ولكن اسمه ليس سميرا.

رآني انظر اليه في فزع واستغراب، فبادرني مؤكداً:

ـ اعرف الرجل جيدا، انه من زبائني، واسمه شعبان.

أذهلتني المفـاجأة. كيـف تراه رسـخ في ذهني ان اسمـه سمير ولماذا اخترت له هذا الاسم من دون كل الاسماء، وكيف ارتضى أن يبقى صامتاً لاينطق بكلمة واحدة، تشير إلى هذا الخطأ وترغمني على أن اناديه باسمه الصحيح، هـل هي المدينـة التي تدور وتـدور وتأخـذنا معهـا في دوامة الدوران، فنغفل أثناء ذلك عن تأسيـس علاقات اكثر عمقا وإنسانية. هل كان اسمه حقاً سمير، ثم أدرك مثلي، ان هـذا الاسم لم يعد يتفق مع ملامـح وجهه، فاختار اسـم شعبان بديـلا لاسمه القديم، يبـدو الأمر مجلبا للحيرة، فالمعلـومة الوحيدة التـي اعرفها عنه، وهـي اسمه، والتي كانت عماد هذه العلاقة، يأتي الآن من يقول انها معلومة مغلوطة. عندما جمعتني بـه الصدفـة في المرة التاليـة، وسمعته يبـادرني بالتحيـة، وقفت ذاهـلاً، لا أدري ماذا أقـول، حـائراً بين اسمه الصحيـح الـذي عرفتـه حـديثا، وبين اسمـه المغلـوط الذي نـاديتـه به لمدة ثـلاثين عـاما، ثـم حسمت الأمر قائلا:

ـ أهلاً سمير.

ـ ٢ ـ

نتحداك يا دالاس

كان اسمـه (نتحداك يـادالاس) وقد التصـق به هـذا الاسم الغـريب الذي لايصلح اسما للكـائنات البشرية، منذ أواخر الخمسينيـات عندما

كان يشارك في السهرات الفنية التي تقيمها أندية طرابلس لنصرة الثورة الجزائرية وجمع التبرعات لها، وكان نتحداك يادالاس يقدم فقرة ثابتة في تلك السهرات، هي محاكاة وتقليد مذيع مصري اشتهر في تلك الفترة بتعليقاته الحماسية اسمه أحمد سعيد.

وكانت هذه الفقرة تلقى أقبالا كبيرا من الجمهور، حيث يلعلع صوته في مكبر الصوت، مرددا تعليقا واحدا يحفظه عن ظهر قلب، ويعيده في كل حفلة من تلك الحفلات، ليجد الجمهور يطلق صيحات الإعجاب بعد كل جملة يقولها وكانت الجملة الأثيرة لديه، التي يتفنن في إلقائها، هي تلك الجملة التي تقول (نتحداك يادالاس) وكان دالاس هذا وزيرا لخارجية أمريكا استقطب هجوم المذيع المصري في ذلك الزمان.

كنت برغم سنين العمر الخضراء، شغوفا بملاحقة المهرجانات السياسية، معجبا بما يقوله (نتحداك يادالاس) وكنت أراه يمشي وحيدا في شوارع المدينة القديمة، فأمشي وراءه، لأحييه وأناديه باسمه الغريب، وكأنني اختبر حقيقة ان هذا الاسم صار بديلا لاسمه الذي ولد به، فيرد التحية باسما، إذ لم تكن الابتسامة، وبرغم اسمه الذي يوحي بالغضب، تفارق وجهه أبدا، وكغيره من دراويش الزوايا والفرق الصوفية، كان يحمل في يده صرة ملابس اينما ذهب، لأنه لم يكن يعرف أين سينام ليلته!

وكان الناس يدركون ان (نتحداك يادالاس) لم يكن يعي خطورة الكلام الذي يردده في ظل نظام حكم تابع لأمريكا، ولكن أعوان النظام أهملوه فلم يعبأ أحد به أو بما يقوله في تلك السهرات.

وحدث أن رافق الرجل فرقة جوالة للأذكار والفنون الشعبية ، أوصلتها جولاتها للمشاركة في إحياء حفل كبير يقيمه قائد القاعدة العسكرية الامريكية بطرابلس لضباطه وضيوفه العرب ، وخلال الحفل اعتلى (نتحداك يادالاس) المسرح وأمسك بمكبر الصوت ، وباشر في تقديم خطبته الشهيرة التي استقطبت دائما الإعجاب والتصفيق وما ان بدأ صوته يلعلع مقلدا أحمد سعيد نتحداك يادالاس ، نتحدى صواريخك وطائراتك ، نتحدى قواعدك وأساطيلك ، نتحدى طغيانك وجبروتك ، حتى أحاط به جنود القاعدة وهو مازال فوق المسرح ، يشهرون في وجهه السلاح ، ويعلنون حالة الطواريء في القاعدة خشية أن تكون هذه الخطبة النارية المعادية بداية حرب شعبية ضدهم .

أفزع الرجل الدرويش جنود القاعدة فغيبته الشرطة المحلية خلف الشمس أياما ثم أفرجت عنه .

أعواما بعد أن مات دالاس ، واختفى أحمد سعيد ، التقيت به وقد تقدم به العمر، يشارك في الإعداد لحفل فني يقيمه احد أندية طرابلس ، وكان يدرب شبلا من أشبال النادي علي تقديم إحدي فقرات الحفل ، وكانت الفقرة هي ذات الخطبة الاذاعية لأحمد سعيد (نتحداك يادالاس) .

ـ ٣ ـ

برق الليل

لم يكن احد ممن يعرفون «برق الليلّ» يظن أو حتى يتخيل ان هذا

الكهل الداكن السـواد، الذي جاء من أقصى مناطـق الجنوب، ليسكن باب البحر منذ أكثر من عشرين عـاما، يتقن الحديث بلغة أجنبية ذات انتشار عالمي هي اللغة الفرنسية.

عرفه النـاس فرانا يقف امام مـوقد النار في كوشـة الحاج التي تشتغل بالقـش والأحطاب، يعـد له بجـوار الخبز صحـاف الكعك في الأعيـاد والمناسبات، ثم اكتسحـت أفران الكهرباء أحياء طرابلـس فأقفل الحاج كوشته وتحول برق الليـل إلى خدمة البيوت وتدبير شئون حيـاته في المدينة التي جاءهـا غريبا، من الأجـر الذي يتلقاه من ربـات هذه البيوت نظير شراء حوائج المنزل أو اصطحاب الاطفال إلى المدرسة، ونتيجة لشخصيته الوديعة المسالمة اصبح «برق الليل» موضع ثقة أهل الحي، تفتح في وجهه الابـواب وتستقبله البيـوت حتى في غيـاب رب الأسرة، ليتـولى مساعـدة النسـاء في اعمالهن المنزلية من طبخ وغسل وكنس دون ان يثير ذلك حفيظة أحد.

كنت أراه مـن بعيد عنـدما أذهب صـدفة إلى ذلـك الحي وهو يـدفع امـامه العـربة الصغيرة التـي يستخدمهـا لنقل الحوائج التـي يشتريها إلى البيوت. فأجده وكأن وجهه اختزن شيئا من وهج وسطوع النار التي كان يحترف الوقوف أمـامها اثناء عمله فرانـا، فاضحت بشرته السـوداء تتألق سطوعا واشراقا وتضفي على وجهه مسحة الرجال الصالحين.

وحدث، ذات مسـاء، ان جاءت بـاب البحر عـائلة فـرنسية تضـم رجلين وثلاث نسـاء. انزلتهـا سيارة الاجرة فـوق الهضبة المطلـة على برج «بوليلة» ونشر أحد الرجلين خارطة كبيرة امـامه، وسار تتبعه بقية العائلة

عبر زقاق ينحـدر باتجاه «الوسعـاية» حيـث حنفية الماء القديمـة . وقفوا هناك يجيلـون ابصارهـم في الابنية المحيطـة بالـوسعايـة ثم تقـدم حامـل الخارطة يتفحص واجهة منزل قريب ، في حين انهمكت احدى النساء في التقاط الصور لذلـك المنزل . تجمع أطفال ورجال حول العـائلة الفرنسية وخـرج صاحـب البيـت غاضبـا يطلـب تفسيرا لهذا التطفل على بيتـه . وعندمـا رأى المرأة تواصـل التقاط الصـور، علا صـوته وهـو يقترب منها مهددا ، يريد ان ينتزع آلة التصوير من بين يديها .

استقطب المشهد الصاخب مزيدا من الزحام وبحث الحاضرون عمن يعرف لغـة القوم فلم يجدوا غير العـارفين باللغـة الانجليزية ، وهـي لغة لايعرفها هـؤلاء الفرنسيون . وعندمـا ظهر «برق الليل» عـائدا من السوق يدفع عربته اليدوية المملـوءة بأربطة الفجل والبصل والجزر وسلال الخبز والفاكهة ، لم يخطر ببال احد من المتحلقين حول الفرنسيين ، انه هو الذي سيحـل المشكلة . إلى ان رأوه يقتحـم بعـربته الـزحـام قـائلا انه سيتـولى التفاهم معهم .

وقبل ان يفـرغ الناس مـن تبادل النظـرات التي تحمـل الشك وعـدم التصديق واطـلاق الضحكات الساخرة لقـوله هذا ، كان بـرق الليل قد وصل إلى حيث العـائلة الفرنسية وصار يـرد على رطانتهم برطانـة مماثلة ، بيسر وسهـولـة ودون عنـاء . ووسـط امـواج الـدهشـة والانبهـار، ابلـغ المحيطين به ان لهذه العائلة الفرنسية جدا قضى الاعوام الاخيرة من حياته في طرابلـس ، حيث كـان يديـر مركـزا لتصديـر (الحلفا) ويقيـم في هذا البيت .

انتهى سـوء التفاهـم الذي اثـار حيرة الناس وتحول العـراك إلى وليمة اقامها صاحب البيت الجديد لأحفاد صـاحبه القديم ، في حين تربع برق الليل بين العائلتين ، الليبية والفرنسية ، يـؤدي بسعادة بالغة مهمة تيسير التواصل بينهما .

ظل برق الليل على مدى ايام كثيرة اعقبـت ذلك اليوم موضع احتفاء من اهل الحي ، يتناقلون في اندهاش حكاية اتقانة اللغة الفرنسية التي لا يتقنها حتى حملـة الشهادات العليا من اهـل باب البحر ، ويسألـونه عن كيـف ومتى وأيـن تعلـم هذه اللغـة ، فكـان يعيـد على أسماعهم قصـة الضابط الفرنسي الذي قضى في خدمته جزءا من صباه وشبابه عندما كان الفرنسيون يحتلـون جنوب البلاد . واراد اثناء ذلك ان يعـود لالتقاط رزقه كما تعود دائما ، مـن خدمـة البيوت ورعـاية الأطفـال ولكنه لم يستطـع . جـدران هذه البيـوت التي كـانت مفتـوحة في وجهـه ، أوصدت فجـأة ابوابها ، ووجـد أن النساء الـلاتي كن يـرحبن بـه في بيوتهن صرن يتهيبـن الحديث معه ويمتنعـن عن تكليفه بأية خدمـة ، ولم يفده شيئا أن يصرخ امام هـذه الابواب المغلقـة انه بـرق الليل الـذي يعرفـونه وانـه مازال على استعداد لغسل الصحون ومسح البلاط وقضاء الحوائج من السوق ، فيرد عليه الرجال قبل النساء ، بأنهم صـاروا يعرفون الآن قدره ويحترمون علمه ويستحون من معـاملته معاملة الخدم والـدراويش ، فهو أرفع شـأنا من هذا المقام ، ولكن المقـام الرفيع الذي اختاروه له صار كارثـة بالنسبة له . فقد حجب عنه كل مصادر الرزق والطعام .

وبعـد ان كان يتخير بين البيـوت ايهم أفضـل طعامـا ليلبي دعوتـه

للغداء أو العشاء ، صار الآن عاجزا عـن تدبير كسرة خبز يسد بها رمقه . انـه لايتقن مهنـة اخرى غير خـدمـة البيوت ، والكلمات الفـرنسية التـي يعرفهـا ، لاتضمن لـه عملا ولاتطعمـه خبزا في بـاب البحر، والصحـة لاتسعفه للقيام بأعمال العتالين في السوق أو الميناء ، فماذا تراه يستطيع ان يفعل .

ذهب مرة أخرى يطـرق البيوت ويلح في الرجاء بأن يعيـدوه إلى سابق عملـه ، لأنه بـدون هـذا العمل سيمـوت جوعـا . ولكـن ذلك أصبـح مستحيـلا الآن ، فكيف يمكـن لنساء العـائلات اللاتي كـن يختلطن بـه باعتباره رجـلا محدود المدارك مثل الأطفال ، ان يعدن إلى ذلـك بعد ان بز بعلمه وإدراكه اكبر العقـول . كان الجميع يعتذرون عن قبول خـدماته ، ويهرعون في ذات الـوقت إلى اسعـافه ببعـض الطعام ، فكـان برق الليـل يرفض في البداية طعاما لايأتيه عـن طريق العمل ، ثم صار تدريجيا يقبل هـذه الضيافـة التي تحولـت إلى صدقـة ، ثم تحولـت فيما بعد إلى عمليـة استجداء وتسـول من طـرفه ، إلى ان اصبـح التسول حـرفة احترفهـا برق الليل . تحول الـرجل إلى شحاذ يحمـل مخلاته ويتكئ على عصـاه بعد أن هجر عربة اليد وارتدى أسمال الشحاذيـن ، وعندما رأيته آخر مرة ، يقف أمام مسجد الناقـة ، بعد صلاة الجمعة ، يمد يده متسـولا، وقد تقدم به العمر، وضاع الألق القديم الذي يشـع من بشرته السوداء ، تأسفت لهذا المصير الذي انتهى إليـه الرجل ، وتعجبت لهذا العقاب الذي انـزلوه به ، لا لشيء إلا لأنه أكثر علما ومعرفة مما كانوا يظنون .

هكذا هم أهلنا في باب البحر.



المحتويات

رقم الايداع : ١٤٢٤٧/٩٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0364 - 7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)





أحمد إبراهيم الفقيه ، الذى تشرف دار الشروق بتقديم أحدث ابداعاته للقارئ العربى ، أحد الكتاب الذين افلحوا فى تحقيق أخطر معادلتين فى عالم الكتابة الفنية ، أولاهما : الرواج والانتشار مع القيمة الإبداعية الراقية ، وثانيهما المحتوى العميق ومقارعة القضايا الساخنة ، مع المحافظة على جماليات الأسلوب وجاذبيته وتشويقه ، بحيث ما أن يمسك القارئ الكتاب ، لا يتركه حتى قراءة آخر كلمة .